

مصطفى صفوان

# لماذا العرب ليسوا أحراراً؟

ترجمة

مصطفى مجازي

دار  
النهضة





لَمَآذَا الْعَرَبُ لَيْسُوا أَحرَارًا؟

## المؤلف:

مصطفى صفوان، هو حالياً مرجع التيار اللاكاني في التحليل النفسي. هاجر من بلده مصر إلى باريس منذ ما يزيد على نصف قرن. له العديد من الكتب المرجعية في التحليل النفسي بالفرنسية، وأسهم في تأسيس العديد من جمعيات التحليل النفسي، وهو في الآن عينه فيلسوف لغوي وسياسي ملتزم بقضية تحرير الإنسان العربي - المصري نموذجاً - من مختلف ألوان الاستبداد السياسي والديني، وله كتابات مهمة في هذا المجال منها كتابه هذا.

## المترجم:

مصطفى حجازي، أستاذ علم النفس في الجامعة اللبنانية وجامعة البحرين سابقاً. له العديد من المؤلفات التي توظف علم النفس في فهم قضايا الإنسان العربي وإطلاق طاقات النماء لديه، من أبرزها التخلّف الاجتماعي وسيكولوجية الإنسان المهذور. ترجم عدداً من المراجع عن كل من الفرنسية والإنجليزية.

# لَمَّاذَا الْعَرَبُ لَيْسُوا أحرارًا؟

مصطفى صفوان

ترجمة  
مصطفى مجازي



Moustafa Safouan, *Why are the Arabs not free?*

© Blackwell Publishing Limited, 2007

تمت ترجمة الكتاب من الفرنسية إلى العربية  
بطلب من المؤلف لأن الطبعة منقحة ومزودة

الطبعة العربية

© دار الساقى، 2012

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2012

ISBN 978-1-85516-917-3

دار الساقى

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.

ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: +961-1-866442، فاكس: +961-1-866443

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi



دار الساقى



Dar Al Saqi



## المحتويات

٧	تقديم المترجم
٢٥	مقدمة
	الفصل الأول
٣٨	عوامل السيطرة الغربية
	الفصل الثاني
٥٢	الأسئلة المنسية في فلسفتنا السياسية
	الفصل الثالث
	التوارث الخلاق والتوارث الآسن
٥٩	الثقافة والسلطة
	الفصل الرابع
٧٢	الشعوب والكتاب
	الفصل الخامس
٨٢	دور اللغة في تكوين الثقافة
	الفصل السادس
٩٣	الكتابة والسلطة
	الفصل السابع
١١٤	الجيل المعاصر طليعة عهد جديد
١٢٠	قراءات استكمالية
١٢٥	فهرس الأعلام
١٢٧	فهرس المصطلحات





## تقديم المترجم

انطلق الحراك العربي في تعبئة شعبية غير مسبقة حرّكت كل الطاقات الحية المختزنة، التي اعتقد الحكام الذين تأزلت سلطاتهم وهيمتهم أنها قد أخمدت نهائياً، وأن الحكم قد طوّب لهم ينعمون به من دون تهديد ولا منغصات. قاد الشباب في البداية هذا الحراك الذي فاجأ الجميع، حكاماً ومفكرين ومحللين، وأطلق موجة عارمة من الحماسة والبذل والعطاء ورفع الصوت، واسترداد الحق في المكان بعد طول إقصاء، وهيمنة قوى الاستبداد على الحيز العام. وبرز الربيع العربي بمثابة أمل عارم في تغيير المصير وانبلاج فجر جديد من التحرر واسترداد الكرامة ومرجعية القرار والمساءلة، بعد كسر حواجز الخوف المزمن، وكسر القمقم الذي سجنّت فيه طاقات الشعب الحية، ولاح أمل الخلاص السحري بتغيير المصير. ولكن تطور الأحداث والوقائع أثبت أن لا خلاص سحرياً ممكن، ولا تحرراً كاملاً ممكن من خلال مجرد إسقاط فراعنة الاستبداد، وأن الثمن لا يقتصر على التضحيات الجسام بالأرواح التي بذلت بسخاء غير مسبوق. بدأ الواقع العربي يتكشف، واتضح أن إسقاط الحكام لا يكفي وحده لتغيير المصير وبناء مستقبل جديد، وأن وراء استبداد الحكام هناك بُنى استبداد ترسخت خلال عقود طويلة بل قرون في المجتمعات العربية على اختلافها، هي التي تسند استبداد الحكام.

يقتضي التحرر واسترداد المكانة ومرجعية المسألة من قبل الشعب باعتباره مصدر كل السلطات، وكذلك بناء المستقبل الذي يمسك فيه الإنسان العربي بزمام مصيره وصولاً إلى صناعته، خوض معركة طويلة النفس لكشف بنى الاستبداد الراسخة سياسياً وثقافياً واجتماعياً ودينيّاً، والعمل على هدم قلاعها بما يمكن من بناء مستقبل نام يعالج قهر الإنسان العربي وهدره الذي طال أمده، وصولاً إلى استرداد كيانه وحقه في الوجود. وأولى مهمات

هدم بنى الاستبداد تتمثل في الوعي الذاتي والتوعية العامة بآليات الاشتغال، الخفي منه والعلني، لهذه البنى التي بدأت تطل برأسها على شكل استيعاب ثورات الربيع العربي ومصادرتها من جديد، مع ما ولدته هذه المصادرة من إحباط لأحلام التحرير، وتسرب لمشاعر خيبة الأمل، والتحسر على التضحيات والخسائر التي بدت كأنها ذهبت سدى. لا بد من الوعي الذاتي والعام بما حققته هذه التضحيات من نقلة نوعية في الواقع، حيث كان من أهم ثمارها الخروج من التاريخ الآسن والتوارث الآسن إلى بداية التاريخ المتحرك والتوارث الخلاقي الذي يفتح آفاق البناء والنماء. لا بد من توطین النفس وشحن الإرادة وتعبئة الطاقات الحية للسیر على درب صناعة التغير، وهي صناعة طويلة النفس بالضرورة. تتجاوز صناعة التغير وبناء الإنسان والمستقبل أكثر من مجرد تغيير سياسي وإسقاط الحكام المستبدین. وتتمثل في مشروع نهضوي فعلي اقتصادي علمي معرفي اجتماعي ثقافي وسياسي مؤسسي، يشغل فيه بناء الإنسان الفاعل المقدر، الموظف لقدراته والمطلق لطاقاته الحية، مكانة محورية. هكذا بُنيت الثورة الصناعية التي تلازمت مع الثورة الثقافية والسياسية والفلسفية والمعرفية. وإلا فإن التغير السياسي قد لا يؤدي سوى إلى إحلال استبداد وتسلط محل آخر، مختلف لونه وأشخاصه، وثابتة بنيته.

هنا تبرز أهمية هذا العمل الذي نقدمه للقارئ العربي. إنه يكشف بنى الاستبداد ويحلل آلياته التي وطدت أركانها، ليس سياسياً فقط، بل اجتماعياً وثقافياً ولغوياً. إنه يمثل أداة للوعي بهذه البنى ودعوة إلى العمل على الانخراط الطويل النفس في معركة تغييرها. ومع أنه كتب تبعاً خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وتلون محتواه بوقائع تلك الفترة السياسية والثقافية، إلا أن أهميته تكمن تحديداً في التحليل الكاشف لبنى الاستبداد التي سادت خلال قرون مديدة مجتمعاتنا، وما زالت فاعلة إلى الآن رغم تغير الوقائع والأشخاص. ولا بد من كشفها في أماكن تخفيها وفضح آليات اشتغالها وصولاً إلى تغييرها من خلال مشروع نهضة اقتصادية علمية ثقافية، وبالتالي مؤسسية سياسية واجتماعية.

نعرض بعجالة في هذا التقديم بعض مكونات بنى الاستبداد هذه التي يركز عليها هذا العمل، كما نتوقف عند شروط مشروع النهضة الاقتصادية السياسية المجتمعية في الغرب، التي عرضها المؤلف باقتدار فكري ومعرفي مميز. ولا بد قبل ذلك من تعريف القارئ العربي بمكانة هذا المؤلف وفكره، التي حرم الفكر العربي من التعرف الكافي إليها، كما حرمت

الحركة الثقافية والعلمية من الاستفادة من عطائها.

مصطفى صفوان هو أحد أكبر مرجعيات التحليل النفسي من المدرسة اللاكانية في باريس التي هاجر إليها من مصر منذ ما يزيد على ستة عقود، حيث أشرف على إعداد وتدريب العديد من المحللين النفسيين اللاكانيين، ووضع كتابات مرجعية في هذا المجال تحتل مكانها في المكتبة التحليلية النفسية. إلا أنه في موازاة ذلك فيلسوف لغوي متعمق بنحو مميز في كل من الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية اليونانية والمعاصرة. وهو يوظف هذه المعرفة في خدمة قضايا تحرر الإنسان العربي - المصري تحديداً بفعل الانتماء الوطني - من موقع الملتزم والحامل لقضية بناء المجتمع والإنسان من مكان إقامته في باريس. إنه دائم الصلة بوطنه الأم ومواكب لأحداثه حيث يكتب في المجالات الفكرية. إنه أحد نماذج هدر أنظمتنا السياسية والعلمية للكفاءات الفكرية العربية المميزة، بدلاً من البحث عنها واحتضانها والاستفادة من عطائها العلمي والفكري. هذا العمل الذي نقدمه للقارئ العربي يبين بوضوح مدى الخصب الفكري في مجال الفلسفة السياسية الذي تتمتع بها كتاباته. وبالتالي فهو يمثل أداة جيدة في معركة الوعي والتوعية التي دأب صفوان على المناداة بها وحث المثقفين العرب على القيام بمهامها.

يتكامل لدى صفوان هم تحرير الإنسان العربي من الاستبداد مع ممارسته التحليلية النفسية. ذلك أن التحليل النفسي يهدف في المقام الأول إلى تحرير الإنسان من خلال استرداد حق القول والكلام وصولاً إلى اكتشاف حقيقته الذاتية، وبالتالي التحرر من الاستلاب الذي تمارسه عليه المكبوتات النفسية. هذه المكبوتات هي في الحقيقة الوجه الآخر للقهر السياسي والاجتماعي والثقافي، وهي تعززه من خلال تسلط الاستبداد النفسي على الإنسان وتبنيه لهذا الاستبداد على شخصه، وفي علاقاته وتفاعلاته. التحرر من الاستبداد النفسي والسياسي يعزز أحدهما الآخر، كما أن تحكم كل منهما في الإنسان يعزز أحدهما الآخر. ذلك أنه لا تحرير فعلياً ممكن من دون تحرر الإنسان، ليس من بطش قوى الاستبداد الخارجية فقط، بل كذلك تحرره من قوى الاستبداد النفسي المتمثل في المكبوتات التي تمارس عليه قهرها وتحكمها في سلوكه وكيانه. عندما يتحرر الإنسان من الداخل يسترد ذاته الأصيلة، ما يمكنه من الانفتاح على الرباط الإنساني والاعتراف بالآخر، انطلاقاً من الاعتراف بالذات، ما يمثل أساس كل تحرير سياسي اجتماعي. فالاستبداد لا يستتب ويوطد

أركانه إلا بعد أن يتحول إلى استبداد ذاتي يمارسه المرء على كيانه من الداخل. والكثير من أمراضنا الاجتماعية المعروفة التي تتجلى في سلوكياتنا اليومية واضطراباتنا النفسية إنما هي ثمرة هذا التحالف الشيطاني ما بين الكبت الذي يمارس على طاقات إنساننا الحية منذ طفولته وبين القمع السياسي المزمن الذي ينبث في البنى المجتمعية، ما يؤدي إلى الغربة عن الذات الأصلية والغربة على صعيد المواطنة وحقوقها وأدوارها. ويتجلى التحرير الثنائي تبعاً لصفوان من خلال استرداد حق القول والكلام في التواصل مع الذات، وفي التعبير السياسي والمواطنة المشاركة الممسكة بزمام مصيرها، مما تجلّى في شعارات الربيع العربي. يعالج هذا العمل العديد من مقومات بنى الاستبداد، من أبرزها العلاقة ما بين اللغة والكتابة، وسلطات الاستبداد، وكذلك ما يمكن أن نطلق عليه تسمية اللاوعي الثقافي، على غرار اللاوعي الفردي، والذي يرسخ علاقة الاستبداد ما بين الحاكم والشعب. كذلك يعرض باقتدار عوامل تفوق الغرب من خلال ثوراته الصناعية التجارية والسياسية والثقافية والمؤسسية، ما أحدث النقلة النوعية على مستوى الممارسة السياسية وعلاقة الحاكم بالمحكوم. ويتوقف في أحد فصوله عند الأسئلة المنسية في فلسفتنا السياسية، حيث استورد العالم العربي مفاهيم الديمقراطية والتمثيل والحرية وما زال يرفع شعاراتها من دون أن يتم الشغل الكافي على تحديد دلالاتها وأبعادها وحدودها. وهو ما جعل الكثير من الحكام يغلفون ممارساتهم الاستبدادية ويحملونها من خلال رفع الشعارات ذاتها وتحويلها إلى ممارسات شكلية. وينتهي العمل بفصل حول المآل الراهن للربيع العربي في مصر، وكيف جرى السطو على منجزاته من خلال مساومات العسكر والإخوان المسلمين.

تلقي مختلف فصول العمل إضاءات كاشفة على كل من هذه الموضوعات الكبرى التي تمثل نقاط ترسخ بنى الاستبداد. ويستحق كل منها وقفة طويلة وقائمة بذاتها، ما يخرج عن حدود هذا التقديم الموجز. نكتفي ببعض الملاحظات على عدد منها، مما قد يغذي الأدبيات الكثيرة عريباً حول الموضوع ويعمق فهم عمل آلياتها.

ترسخت بنية الاستبداد خلال قرون طويلة من خلال تحالف ثلاثي: التجريم والتحریم والتأثيم، وصولاً إلى إخضاع الجماهير وغرس أخلاق الطاعة في النفوس والأذهان. الاستبداد يمارس التجريم كما هو معروف من خلال أجهزته الأمنية القمعية التي تنشر شبكة سطوتها وسيطرتها على جميع مناحي الحياة، وتقمع بلا هوادة أي مؤشر على

التمرد والخروج عن الطاعة. ومن المعروف أن هذه الأجهزة الأمنية هي الأكثر تمويلًا وتجهيزًا في عالمنا العربي. إلا أن الاستبداد يتعزز من خلال التحريم الديني الذي يسيطر على النفوس والأفئدة ويخضعها لسلطانه. ويتم التأييم لعمل التحريم والتحریم من خلال حكم العصبية التي تنتج المستبدین. تقوم العصبية على سياسة "اخضع ترضع"، أي الخضوع لسلطة العصبية العائلية أو العشائرية أو القبلية لقاء الحماية وتأمين المنافع. وأي مَرَد على سلطة العصبية يعرض صاحبه للحرمان والنبد باعتباره خروجاً عن الطاعة واعتداءً على كيان العصبية، هذا إذا لم يطرد أو يهدر دمه.

يرسخ هذا التحالف ما بين الاستبداد السياسي والأصوليات الدينية وتعصب العصبية وفرضها للطاعة على أعضائها شبكة التحكم في الإنسان في سلوكه وفكره ووجداناته، فيحجر على طاقاته الحية ويسجنها في القمقم، بحيث يفرض الانقياد الذي يؤدي إلى اختزال الحياة في مجرد أمور المعاش وحماية الرأس. ونظراً إلى ديمومة هيمنة ثلاثي التحريم والتحریم والتأييم على الأذهان والأفئدة، فإن علاقات الاستبداد تنتشر وتوالد في البيت والمدرسة والمسجد والعمل والنشاط العام، بحيث يولد تعزيزها المتبادل لاوعياً ثقافياً يرسخ الاستبداد بدوره.

الاستبداد السياسي والأصوليات الدينية والعصبية هي قوى متحالفة على الإنسان ولو بدا أن بينها صراعات مصالح ونفوذ أحياناً، إنها تدجن الإنسان سلوكياً وذهنياً ووجدانياً، ما يجعله ممكناً دوام السيطرة عليه. وتتحول هذه السيطرة الخارجية إلى ضوابط ذاتية حين يتم تمثيلها. وهكذا يعاد إنتاج الاستبداد في الممارسات الاجتماعية والعلائقية على اختلافها. والمذهل أن هذا التمثيل من قبل الشعب لا يقتصر على ترسيخ أخلاق الطاعة والامتثال، بل يصل على المستوى الشعبي أحياناً إلى تعزيز سلطة المستبد من خلال تمجيد خصاله وسلوكاته وهيمنته. فكل ما يأمله الشعب هو رفع الجور عنه وإحقاق الحق من قبل "المستبد العادل" - وكان هناك عدلاً ممكناً مع الاستبداد - الذي تروج أسطوره دينياً وشعيباً. إنه لا يطمح إلى النيل من سلطة السلطان أو تغييره أو مساءلته. نجد الدليل عليه في شعارات الأحادية والتأليه فوق مستوى البشر للحاكم. والمستبد من جانبه، من خلال تحالفه مع رجال الدين وسيطرته عليهم وتسخير فتاواهم لتعزيز سلطته، يسحب من الموروث الديني ويستند إليه، مكتسباً العديد من صفات الألوهية المتمثلة في أسماء الله الحسنى: الواحد الأحد الفرد

الصمد القوي القهار العزيز الجبار المتعالي، الغفور الرحيم المانع المانع إلى آخر السلسلة... المستبد هو عادة سليل العصبية التي قَبِضَ لها الانتصار على بقية العصبيات وفرضت عليها شوكتها، وغلبتها، وتوارث الحكم عن رئيس هذه العصبية بالنوبة، أو هو يصطنع لنفسه عصبية جديدة عسكرية إذا وصل إلى الحكم بانقلاب عسكري. وكما تفرض العصبية الولاء على الأتباع لقاء الحماية والمغانم، وتحاسب بلا هوادة على أي خروج عن سلطتها، من خلال سياسية "السيف والمنسف"، فإن المستبد يفرض الولاء على الرعية بدوره من خلال السياسة ذاتها، إضافة إلى فرض الهيمنة من خلال التحكم في النصوص. هذه الأحادية وهذا التآليه الذي تغذيه جماعة التحبذ من المنتفعين من خيارات السلطان، ثروات ونفوذاً، يؤدي إلى نمو ظاهرة التضخم الذاتي لدى المستبد الذي يسجن نفسه أو يُسَجَّن في ما يشبه قاعة المرايا بحيث لا يعود يرى سوى ذاته المضخمة، ولا يخطر في باله أبداً أن لسلطته حدوداً وأن عليها قيوداً. قد يكون هذا بعض سر الاستماتة في دفاع المستبد عن سلطته وتسلطه، ولو أدى ذلك إلى خراب البلاد وهلاك العباد، بما رأينا ونرى نماذج منه في بعض الأقطار العربية. يطول الحديث في آليات الاستبداد واشتغالها، ما يدفعنا إلى إحالة القارئ على كتابنا بعنوان الإنسان المهذور، حيث تُعرض آليات التدجين السلوكي والذهني والوجداني للجماهير، كما تُعرض آليات تحالف الاستبداد السياسي والأصوليات الدينية والعصبيات القبلية والعشائرية والعائلية وسواها، في السيطرة على البلاد ومقدراتها وتحويلها إلى ملكيات خاصة، وإلى نوع من المرعى للبقرات السمان المكونة من عائلة المستبد وحاشيته وعصبيته، ترعى الكلاً وترتوي من الماء وتطرد الجماهير إلى الأرض الجذباء. ليس هناك من مشروع نهضة صناعية/ تجارية/ مالية/ فكرية/ ثقافية فعلية، تضع أسس بنى مؤسسية قانونية تشغيلية تؤطر طاقات الجماهير وتطلقها وتنميها، وتحدد آليات ممارسة السلطة ومسؤولياتها، بل هناك اقتصاد خراجي قائم على توزيع المغانم. يذكر صفوان في أحد فصول هذا العمل كيف أنه في أثينا اليونان القديمة، حيث قامت أول ديمقراطية معروفة في الغرب، كيف أن أثينا كانت تمنع تجديد ولاية الحاكم الأكثر شعبية لدى الجماهير، الناجمة عن تقاينه في خدمتها، حتى لا يجنح نحو الاستئثار بالسلطة وإدامة تحكمه فيها. كذلك يذكر لنا في موضع آخر كيف أن أصعب مهمة واجهت آباء الدستور الأميركي، حسب نصريحهم هم أنفسهم، تمثلت في كيفية وضع الضوابط للحاكم، بحيث

تحول دون استبداده بالحكم واستثنائه فيه، خدمة لإطلاق مبادرات الناس، وحماية لها، مما لا يلغي بالطبع إدانة الهيمنة الأميركية على العالم واستغلال مقدرات شعوبه. تلك مسألة أخرى أدت إلى حماية الاستبداد السياسي في بلادنا وتحويله إلى أدوات في خدمة هيمنتها الاقتصادية والمالية. رفعت أميركا شعار الحرب على الإرهاب لمنع تطوع الشعوب إلى الاستقلال والتمتع بخيرات بلادها وثمار جهود أبنائها. ولقد انضاف شعار الدول المارقة والجماعات المارقة إلى ثلاثي التجريم والتحریم والتأثير، ما زاد في وطأة حصار الطاقات الحية لدى شعوبنا. وبذلك تحول الثلاثي إلى رباعي، ما زاد من صعوبات مهمات التحرير وأعبائه ومجالاته.

كل ذلك معروف ومألوف. إلا أن هذا العمل يقدم تحليلاً بالغ الأهمية لعلاقة السلطة باللغة والكتابة والنصوص وتجييرها لترسيخ سلطة الاستبداد، ما يستحق التوقف عنده وتدبر وسائل الوعي به والتعامل معه، وصولاً إلى تغييره لخدمة إنساننا وإمساکه بزمام مصيره، وصولاً إلى صناعته.

يطرح صفوان قضية اللغة الفصحى واللغة العامية في أكثر من فصل وموضع من هذا الكتاب. وله في ذلك نظرية لها وجاهتها على صعيد الديمقراطية. إنه يدعو بصراحة إلى الدفاع عن لغة الشعب التي يتعلمها المرء على لثدي أمه، ويعبر بواسطتها عن وجداناته وهمومه وتطلعاته. ولقد ذهب بعيداً في المناداة بضرورة استعمال الكتاب للغة التي يفهمها الشعب ويتداولها. فاللغة الفصحى واستعمالها يمثلان رقابة على التعبير الشعبي العفوي والأصيل، لأنها لغة فوق الشعب من حيث مرجعيتها. استخدام اللغة الفصحى هو رفض السماح للأمين بكلام ملآن حول مستقبلهم. ذلك أن الفصحى لغة نخبوية تقتصر على الخاصة الذين يكتبون بها ويتداولون هذه الكتابة في ما بينهم، في عزلة عن الشعب وتعبيره عن قضايا المعيشة، وبالتالي فهي تبقى غريبة عن الشعب ولا تقوم بوظيفة التوعية المطلوبة. تبخس هذه النخبوية كلام الشعب الذي يعدّ مبتدلاً ولا يصلح للتعبير عن القضايا الكبرى السياسية والأدبية والعلمية. وبالتالي فإن لغة القلة النخبوية هذه تخدم حفاظ السلطة على استبدادها وسيطرتها على الجماهير. إنها لغة النصوص الدينية المقدسة والنصوص الرسمية القانونية والإدارية التي تحتاج إلى تأويل وتفسير كي يفهمها الشعب. من خلال نخبوية الفصحى باعتبارها لغة النصوص ترسخ السلطة هيمنتها. فالسيطرة على النصوص الدينية

والقانونية هي أداة السيطرة على النفوس، وبالتالي فالسيطرة على النصوص المصوغة بغير لغة الشعب هي في الآن عينه سيطرة عليه من خلال النصوص التي تتجاوز استيعابه وتحتاج دوماً إلى وسيط (رجل الدين، أو رجل القانون). ويذهب صفوان إلى أن السلطين الزمنية والدينية على حد سواء ترفضان قطعياً تعليم لغة الشعب في المدارس. إنهما ترفضان الفصحى، وتعلم صرفها ونحوها، ما يؤدي إلى اغتراب التلميذ عن اللغة التي تعلمها على ندي الأم، وبالتالي فهو يدخل في النخبة المنفصلة عن الشعب ويتخذ من الفصحى مرجعية له، وبهذا يبقى الشعب تحت السيطرة.

الواقع أن الفصحى تظل لغة فوقية تؤدي إلى انفصال المرء عن ذاته ووجداناته وخبرته المعيشة. الكلام بالفصحى يدخل المرء في حالة انسلاخ عن هذا المعيش والدخول في مرجعية سلطة كلام يتجاوزها. ذلك ما نشاهده عادة حين يقف إنسان ما خطيباً في مناسبة ما. إنه يعدّ خطاباً مكتوباً ولا يندر أن يخرج أحياناً عن النص كي يعبر عن وجداناته بلغة شعبية. إنه يستعيد عندها التعبير الأصيل عن ذاته.

يذكر صفوان في أكثر من موضع في كتابه أن الثورة الثقافية المصاحبة للثورة الصناعية لم تقم في أوروبا إلا بعد الثورة على اللاتينية، لغة الكنيسة ولغة النصوص المقدسة التي لا وصول للشعب إليها إلا من خلال وساطة رجال الدين، وبالتالي فهي قد ضمنت هيمنة الكنيسة على مجموع المؤمنين. لم يكن قيام الديمقراطية ممكناً في أوروبا إلا بعد حسم المعركة ما بين اللاتينية وبين لغة الكلام الفعلي.

ترجم مارتين لوتر الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية الشعبية، وبذلك أصبح مصلحاً لأنه أعطى الألمان لغتهم التي بها يقرأون الكتاب المقدس ويتعاملون مع الحياة. من خلال هذه الترجمة ألغى سلطة التوسط ما بين الشعب والنصوص المقدسة، وبالتالي ألغى هيمنة الكنيسة واحتكارها لتأويل النصوص الدينية بغية توطيد مرجعيتها وشرعيتها. لم يعد الشعب الألماني بحاجة إلى وساطة الكنيسة ورجالها كي يقرأ الكتابات المقدسة ويفهمها. ولقد أدت هذه الترجمة إلى بروز كبار الأدباء الألمان بعد ذلك (من مثل غوته وشيلنج).

كذلك هي الحال مع غاليليو الذي تحدى اللاتينية وكتب أدباً رائعاً بالعامية. ولقد اعتبر عمله هذا تحدياً للكنيسة وسلطتها. وكان ذلك هو السبب الحقيقي الذي منع إبطال حكم الإدانة عليه بشأن عدم مركزية الأرض ودورانها حول الشمس على عكس نظرية الكنيسة



التي تقول، مركزية الأرض. لقد وجدت الكنيسة أن غاليليو قد جَدَّف من خلال كتابته بلغة الدهماء والسوقة التي لا تتناسب أبداً مع سلطة البابا المطلقة.

وفي السياق ذاته كتب دانتى الكوميديا الإلهية بالعامية الإيطالية، وهي، كما هو معروف، من أعظم الآثار الشعرية في تاريخ الأدب الأوروبي، وكان له أثر حاسم على اللغة الإيطالية المعروفة حالياً وانتشارها.

هذا التحول في عصر النهضة من اللاتينية (لغة الكنيسة والقلّة وأداة سيطرتهما) إلى اللغات العامية الأوروبية، كان من مقومات قيام الثورة الثقافية، حيث استرد الشعب لغته، ومعها استردّ مرجعيته الذاتية وتحرر من مرجعية الكنيسة والبابا وكسر احتكارهما، وأصبحت المرجعية دنيوية، ما أطلق ثورة المعرفة والعقل من خلال تعميم القراءة والكتابة بلغة الشعب.

يذكر صفوان أنه من المتحمسين والمنادين بكسر احتكار اللغة الفصحى، ولذلك فقد ترجم مسرحية عطيل لشكسبير إلى العامية المصرية. وكانت غايته في ذلك ردّ حق القول إلى الجماهير والكلام بلغتها، وبالتالي استرداد كيانها. ويذكر أن دعوته هذه لم تلقَ الصدى المطلوب، بل إنه أسيء فهم هدفها التحريري للشعب. ذلك أن استرداد حق الكلام هو استرداد حق الوجود ذاته، مما كان جلياً في الشعارات التي رفعتها الجماهير خلال تحركات الربيع العربي. والواقع أن غاية صفوان تحريرية نبيلة وليست مجرد دعوة إلى الابتدال. ودليله على ذلك هو ما يفعله الاستعمار حين يحتل بلداً ما، حيث يلغي لغة الشعب ويفرض تعلم لغة المستعمر باعتبارها اللغة النبيلة في مقابل لغة الشعب المحتلّ المبخسة. ومن تبخيس اللغة يتحول الأمر إلى تبخيس الكيان ذاته، وإلى بروز حالة الاستلاب والغربة عن الذات، ما يوطد سلطة المستعمر. ولذلك ليس من الغريب أن يكون ممسك الشعب المحتل بلغته الأم هو إحدى وسائل مقاومة الاستعمار، وأن تكون إحدى مهمات التحرير الأولى هي استعادة اللغة الوطنية المغيبة بما هي التعبير الأصيل عن الهوية. يفرض المستعمر لغته ويعلمها للقلّة التي ستمثّل النخبة المرتبطة به والتي تخدمه، حيث يوظفها لتسيير إدارات البلد المحتل. إنها نخبة منفصلة عن الشعب الذي يهدف الاستعمار إلى هدم ثقافته وإغاثتها وصولاً إلى إلغاء استقلاليتها كيانه وهويته.

فرض تعليم لغة المستعمر لطالما استخدم بمثابة أداة انتقائية للنجاح في الدراسة. وهو

ما يعاني منه طلاب الشرائح الشعبية في التعليم العام، حيث يؤدي تواضع امتلاكهم للغة الأجنبية إلى عدم اجتياز امتحانات الشهادات الرسمية، وبالتالي الحرمان من التعليم العالي، أو من دخول الوظائف العامة العليا، أو دخول سوق العمل المرتبط بإتقان اللغات الأجنبية. قضية اللغة الإنجليزية أصبحت معروفة. لقد تحولت اللغة الإنجليزية إلى نوع من إمبريالية الـ (English) التي تمثل جواز دخول سوق العمل الدولي راهناً. إنها هيمنة أميركا التي تفرض من خلال لغتها ما يشبه مرجعية للتفكير والقول والممارسة، وكل من لا يمتلكها وينضوي تحتها سيظل محروماً من حظوة خيرات العولمة المالية والتقنية.

يكاد العالم العربي يكون من الحالات القليلة التي لم تبنى فيه بعد نهضة علمية وفكرية وتقنية باللغة الأم، وذلك على عكس معظم شعوب العالم النامية والمتقدمة. لم يؤسس عربياً بعد علوماً وتقنيات باللغة الأم، وبالتالي لم ينتج العالم العربي إنجازاً يذكر في هذا المجال. بدلاً من الانقسام التقليدي ما بين قلة نخبة تتعامل بالفصحى وتحتل وظائف دواوين الإدارة وبين عامة الشعب المقصاة والمبعدة، هناك انقسام جديد في عصر العولمة ما بين العربية، وبين الإنجليزية، لغة النخبة الجديدة التي تتعرض للانسلاخ عن الانتماء الوطني، والانتماء إلى ثقافة الهيمنة الأميركية. إنهم أبناء النخبة أبطال العولمة الذين دخلوا جنتها التقنية (تقنيات الاتصال والإعلام الاجتماعي والإنترنت) والمالية (السوق المالية العالمية). أصبح لهؤلاء لغتهم الخاصة في تواصلهم الاجتماعي، وهي مزيج من الإنجليزية أو الفرنسية ومن بعض تعابير العربية المحكية. إنهم أبناء عالم قائم بذاته لا صلة له بعالم الجماهير.

صفوان محق في ما يذهب إليه من أن التحرير النفسي والثقافي الفعلي يمر من خلال استرداد الشعب للغته وحق القول الملائن من خلال كلامه. إلا أننا نرى من جانبنا أن تحقيق هذا التحرير لا يمر بالضرورة من خلال إحلال العامية محل الفصحى. ذلك أن مشكلتنا هي في مكان آخر، في نسبة الأمية العالية جداً بين جماهير شعبنا، ما لم يعد مقبولاً في العالم الراهن.

تتمثل مهمة التحرير في تقديرنا من خلال محو أمية كل شرائح الشعب بنحو فعلي ووجداد، وبحيث تناح القراءة والكتابة للجميع. وتتمثل في عملية موازية أصبحت تشكل ضرورة ملحة هي إخراج اللغة العربية من جمودها وماضويتها وتحويلها إلى لغة وظيفية للكلام والكتابة، من خلال العمل على تبسيط صيغها النحوية واللغوية، وإدخالها في روح العصر،

وبحيث تصبح لغة كل من العامة والخاصة على حد سواء. ذلك ما فعلته وما زالت اللغات الأوروبية، والإنجليزية على رأسها، حيث أصبحت اللغة اليومية هي ذاتها لغة العلم. وهنا يتعين على مثقفينا وعلى مجامع اللغة العربية القيام بمهمة التبسيط والتحديث هذه. بذلك يسترد إنساننا حق القول ويدخل في التاريخ الدينامي المتحرك.

وتكمل الكتابة مسألة السلطة والنخبة والسيطرة على الشعب. ولصفوان إسهام مهم في هذه القضية خلال فصول الكتاب. فتبعاً لأبحاثه، إن بلاد الشرق الأوسط القديم التي اخترعت الكتابة قد جبرتها سلطات الحكم المطلق فيها لخدمة أغراضها وجعلتها حكراً على موظفيها وخدامها، حارمة الشعب الذي أبقته على أميته منها، كي يسهل إحكام قبضتها عليه. الكتبة أيام الفراعنة كانوا في خدمة الفرعون معزولين عن الشعب الأمي. ولقد اتخذت الكتابة منذ ظهورها طابع الحقيقة المنزلة، حيث كان خلقها ينسب إلى الإله. كانت الدول القديمة تشجع الكتابة المنقوشة على حجر وعلى صفائح الطوب وأوراق البردي، وهي نصوص لم يكن الشعب الأمي يستطيع قراءتها. وبمجرد كون النص مكتوباً، كان يعطيه سلطة كافية لضمان خضوع الشعب. إنها سلطة النص المكتوب الذي يتخذ دلالة حتمية. فالكتابة هي كلام الإله المقدس، وهي حيز الحقيقة الصامت (ذلك مكتوب ١١). ولذلك فلقد مثلت منذ ظهورها سلطة مطلقة لا تضاهي، وبالتالي تحولت إلى أداة استغلال في يد الحاكم، كما كرست سيطرة النخبة الحاكمة. وما زال الأمر ذاته يسري إلى يومنا هذا لجهة موقف العامة أمام ما هو مكتوب. كانت النصوص توضع في أماكن مختارة: قصور، معابد، مدافن. ويقتصر حق الدخول إليها على النخب السياسية والدينية. ولذلك فلقد تركزت رمزاً للسلطة السياسية والاقتصادية والقانونية والإدارية. ولم تكن هذه الكتابة بلغة الشعب، إنما كانت، وما زالت، بالفصحى النبيلة الضرورية لاحتلال المناصب على اختلافها، في الدين كما في السياسة والإدارة. وهكذا فتأويل النصوص الدينية يقتصر على الكهان، وكان الحاكم المتسلط يحصل دوماً على التأويل الذي يريده ويخدم سلطته من قبل رجال الدين قلبياً وحديثاً. ذلك ما كانت عليه الحال في ظل الدولة العباسية حيث كان كبار رجال الدين في خدمة سلطان الخليفة، وكانت فتاويهم الدينية مكرسة لتوطيد سلطته. ولذلك كان لا بد للدولة والكنيسة من إبقاء سيطرتها على النصوص كي تسيطر على النفوس (الإيمان وتعاليم الدين)، وتحكم من خلال النصوص. وما زالت سلطة الكتابة

قائمة إلى الآن باعتبارها من مميزات النخبة الثقافية.

وبالطبع تغيرت علاقة السلطة بالكتابة حالياً من حيث الشكل فقط، لكن بقي الجوهر على حاله في شطره الأكبر. فسلطات الاستبداد لا تكفي بتسخير رجال الدين وفتاويهم لخدمة سيطرتها، بل هي تسيطر على الكتاب وقطاع الثقافة والإعلام. تؤم الصحف وممارس الرقابة المشددة عليها، وتشترى الكتاب من خلال توظيفهم، ومن خلال السيطرة على اتحاداتهم. ويتحول هؤلاء الذين تغدق عليهم الأموال إلى أدوات لتعزيز سلطة الحاكم. منهم من يؤدي دور الشرطي الثقافي للنظام الذي يستوعب ما يفلت من سيطرة الأمن والتحكم في السلوك، ومنهم من يؤدي دور خبير تسويق النظام ويروج لإنجازاته العظمى والفذة، ومنهم من يؤدي دور اختصاصي تحميل المتسلط من خلال إغراق مساحات الصحف والشاشات بمحاسنه وفضائله وخصاله التي تسمو فوق البشر، بما يرفعه إلى مرتبة العصمة عن العيوب والأخطاء، فضلاً عن الرذائل.

أما المتمردون من الكتاب فإنهم يحاربون بلا هوادة، يحاصرون ويهيمشون ويحرمون من فيض الخيرات التي تغدق على رؤساء اتحادات الكتاب ورؤساء تحرير الصحف والإعلام المسموع والمرئي. ومن لم يطوَّع من خلال سياسة "السيف والمنسف" فإنه قد ينفي أو يسجن، هذا إذا لم يهرق دمه، أو يتهم بالعمالة والخيانة، ويتحول إلى شهيد حي.

إلا أن تكنولوجيا المعلومات والاتصال قد أحدثت ثورة فعلية في الكتابة والسلطة. لقد سمحت بإفلات الكتاب غير المدجنين من قبضة السلطة. وهكذا انتشرت المدونات، وأحدثت تقنيات الإعلام الاجتماعي (فايسبوك وأخواتها) ثورة إضافية من حيث انتشار وسائل الاتصال وأساليبه، ما كان له الدور الحاسم في التعبئة والحشد في تحركات الربيع العربي. كذلك تغيرت الحال بالنسبة إلى الفصحى التقليدية، فأصبحت لغة شبه تراثية، وحلت محلها اللغة العربية الوظيفية والدارجة، واللغة الهجينة (خليط الإنجليزية والعربية المحكية منها وذات التعابير المخترعة من قبل جيل الشباب). إلا أن جماهير الشعب ما زالت في منأى عن هذه الثورة على وجه الإجمال، وخصوصاً في الريف. نشأ جيل جديد مرتبط بمرجعية العولمة، مكوَّناً نخبة ناشئة تضم فئات مناضلة من أجل التغيير إلى جانب أبناء الأثرياء الجدد المنغمسين في لهوهم.

إلا أن مهمة الكتاب والمثقفين أصبحت أكثر إلحاحاً، كما تتكرر دعوة صفوان إليه. إنه

يدعوهم إلى التركيز على نشر التوعية لتطاول أوسع الشرائح الشعبية، والإقلاع عن مقارعة الحكام الذين لن يقتنعوا أو يقبلوا بالتغيير.

وهنا تطرح من جديد قضية محو الأمية كلياً بمثابة بداية المشروع الحضاري، إضافة إلى تطوير اللغة العربية بحيث تصبح وظيفية قادرة على تلبية التعامل مع قضايا الحياة اليومية والعامة، وتطرح معها مهمة جديدة متمثلة في محو أمية تكنولوجيا المعلومات والاتصال التي لا مجال لشراكة عالمية راهناً من دون التمكن منها، وصولاً إلى بناء مجتمع المعرفة. ولا بد للعالم العربي من استدراك هذه الفجوة المتزايدة كي يتمكن من بناء مشروع حضاري يجد فيه الإنسان العربي ذاته ويؤدي دوره ويسترد الإمساك بزمام مصيره وصناعته.

يهدف الكشف عن بنى الاستبداد الخفية في الواقع إلى تبيان معوقات النهضة الحضارية، إذ لا نهضة ممكنة مع وضع اليد على البلاد ومقدراتها، وخنق الطاقات الحية، وهدر الإنسان والموارد، التي تنتج بالضرورة عن هذه البنى الراكدة التي تحافظ على ديمومتها، بدلاً من الانخراط في مشروع إنمائي حقيقي. ويقدم لنا صفوان في هذا الكتاب عرضاً متمكناً لعوامل نهضة الغرب الذي أنجز ثورات صناعية وتجارية وعلمية ثقافية متلازمة، وصولاً إلى الخروج من الحكم الإلهي والتحرر من سلطان الغيب. يبين هذا العرض عمليات هذه الثورات التي اقتضت معارك مديدة، وصولاً إلى فرض سيطرته على الطبيعة وعلى العالم الثالث بما فيه عالمنا العربي. نتوقف عند محطات أساسية في هذه المسيرة كي نتبصر في ما يتعين علينا عمله.

ابتدأت الثورة التجارية/الصناعية في الغرب منذ القرن الثاني عشر الميلادي وما زالت مسيرتها تتقدم إلى الآن. كانت البداية في خروج الغرب من عزله وحكمه الإلهي وسيطرة الكنيسة من خلال نشأة المدن - الدول التي انخرطت في عمليات تجارية كبرى مع الشرق، واكتشفت كلاً من طريق الهند وأميركا، وأدى ذلك إلى بروز طبقة التجار الجدد الذين راكموأرأس المال، ما أطلق عملية اقتصادية عالية الديناميكية أصبح لها تأثير لا يقاوم على كل من الكنيسة والملوك. ومع توسع التجارة وتراكم رأس المال نشأت حركة صناعية زراعية كبرى، فازدهرت الصناعات وتطورت الحرف، ونشطت حركة استغلال الموارد الطبيعية من فحم وتعددين، وشقت القنوات والطرق التي تصل أقطار أوروبا ومدنها - الدول، وتكثفت حركة التبادل التجاري، أسست البنوك والمصارف، ووضعت أنظمة

التعامل المالي والتبادل التجاري والصناعي. باختصار، انخرطت أوروبا في مشروع تجاري صناعي مالي كبير قلب تدريجاً أنماط الحياة الإقطاعية والخارجية التقليدية، من خلال التوجه المتزايد إلى الانفتاح على الأسواق العالمية ومبادلاتها، واكتشافاتها وبناء الأساطيل التجارية والعسكرية التي تلتقي تسارع نمو حركة الأسواق وحمايتها، إضافة إلى توسع استعمار العالم القديم. اقتضى هذا النمو المتسارع تأسيس تكتلات للتجار والصناعيين والحرفيين، أطلق عليها اسم المتجسديات التي تمثل النقابات صيغتها المعاصرة. أصبح لكل فئة متجسدية خاصة بها تدافع عن مصالحها وتنظم أصول ممارسة النشاط أو المهنة وشروطها والعلاقات ضمن أفرادها، وبينهم وبين القطاعات الأخرى. تلك كانت بداية بروز المؤسسات التجارية الصناعية المهنية المالية، التي فرضت نفسها على النشاط السياسي وإدارة الدول والممالك، والتي شكلت نواة البرلمانات في ما بعد وأرست مبادئ التمثيل، ضمن كل من قطاعات النشاط. ذلك أن المتجسديات اكتسبت طابع الشخصية المعنوية والقانونية ذات الاستمرارية، والتي يتعاقب على مجالس إدارتها التمثيلية أشخاص متغيرون. الأشخاص يتغيرون والمتجسديات تبقى. وهو ما أدى إلى بروز الطابع التمثيلي على الصعيد السياسي: الملك أو الإمبراطور أو الحاكم هو ممثل الشعب ومفوض من قبله. سلطاته ليست نابعة من شخصه بل هي من صلاحيات المنصب الذي يشغله. وذلك على نقيض الاستبداد السياسي وحكم الكنيسة القائمين على الحق الإلهي المتجاوز للشعب حيث الدولة هي جسم، قدماء وساقاه على الأرض ممثلة في الفلاحين والحرفيين والعامّة، ورأسه في السماء يمثله البابا والحاكم وكيل الله على الأرض.

بدلاً من الدولة بمثابة جسد واحد، برز التنوع والفروق وصراع المصالح. والقوة والتسويات والتوافقات التي تمثلها المتجسديات. لكنّ هذه التحولات السياسية لم تمر مروراً هيناً، بل كانت ثمرة صراعات مريرة وطويلة حتى قِيض للحكم المدني أن يحل محل الحكم الإلهي المتمثل في سلطة الكنيسة والبابا على رأسها وولاية الملوك والحكام نيابة عنه، بينما ما نعرفه من أنظمة استبداد ما زالت تفرض مشروعيتها الإلهية أو مشروعية الغلبة وقوة العصبية، مما هو فوق الشعب. أنجز الغرب هذا التغيير البنوي على صعيد السلطة ودخل في التوارث الخلاق، كما يقول صفوان، بينما ما زلنا في التوارث الآسن الذي يؤزل بني الاستبداد.

كان لا بد لهذه الثورة الاقتصادية التجارية الصناعية من ثورة ملازمة لها وتخدم احتياجاتها من الطاقات البشرية والمهارات المعرفية. وهكذا بدأ تأسيس الجامعات في المدن - الدول والممالك من بعدها: جامعات بولونيا، وبادوا والسوربون وأكسفورد وكمبريدج. تخصصت كل منها في مجال أساسي. أصبحت جامعة بولونيا المركز الأوروبي المرموق لدراسة القانون، واهتمت السوربون بالفلسفة، وكل من كمبريدج وأكسفورد بالعلوم، إضافة إلى اهتمام هذه الجامعات باللاهوت. وتحولت كل منها إلى متجسدية ذات استقلال ذاتي مكونة من الأساتذة والطلاب. وحظيت هذه الجامعات بتمويل سخي من كبار رجال المال والأمرء حلفائهم من ضمن الحفاظ على استقلاليتها التامة على مستوى التسيير. خرجت هذه الجامعات وسواها التي أنشئت في أوروبا كبار رواد الثورة العلمية في عصر النهضة: كوبرنيك ونيوتن وغاليليو وبيكون وسواهم. ولقد حظي كل منهم برعاية الأمرء والحكام وحمائهم. ولم تكن هذه الثورة العلمية وليدة مشروع ترفي، بل هي نشأت وازدهرت لتخدم الثورة الصناعية ومتطلباتها من علماء قانون وإدارة ومال ومخترعين، وعلماء فلك ورياضيات. ويخدم هذان العلمان كلاً من حركة الاكتشاف للعالم القديم، والهندسة المعمارية واختراع الأسلحة الثقيلة.

تحولت الجامعات من دراسة النحو والبلاغة والمنطق، وهي علوم الكنيسة، إلى دراسة الحساب والعمارة والموسيقى والفلك، وهي علوم الصناعة والتجارة والإنتاج. وتحولت المدارس والجامعات إلى معامل تنتج الأفكار. وتحول شرح النصوص من رجال الدين إلى المدرسين. وخاضت الجامعات وعلمائها معركة كبرى لإحلال "سلطان العقل محل سلطان الغيب". مع الثلاثي كبلر وغاليليو ونيوتن وضعت قوانين الفيزياء الصارمة التي تفسر حركة الكون انطلاقاً من مبدأ العلية الآلية وحميتها بدلاً من مبدأ الغائية الغيبية. ومنذ ذلك الحين انصب اهتمام العلماء على الملاحظة والتجريب وصولاً إلى استخلاص القوانين الحتمية التي تفسر علية الظواهر والوقائع.

تقدم العلوم وقوانينها لا يبدو كونه تصوراً مادياً للطبيعة، التي يحكمها كلياً مبدأ السببية الحتمية. ومن خلال نفس الغائية الغيبية واكتشاف قوانين الحتمية المسيرة للطبيعة وآليات عملها أمكن للإنسان السيطرة على الوجود وتسييره. أصبحت المرجعية لسلطان العقل الإنساني بدلاً من مرجعية سلطان الغيب.

وهكذا حل اليقين العقلي العلمي، محل اليقين الإيمان الغيبي، وحلت تنبؤات العلم التقنية وقوانينه ونظرياته العلية محل التنبؤات الغيبية: لكل شيء علة مادية، وكل علة ينتج منها معلول. هذا التحول الثوري جعل عقل الإنسان هو السيد، وهو المدبر والمبادر.

وقطعت ثورة سلطان العقل شوطاً آخر مع فرنسيس بيكون الذي وضع الاستقراء الذي يقوم عليه المنهج التجريبي. قلب بيكون المعادلة من الاستدلال الذي يذهب من الكليات إلى الجزئيات، الذي كانت تتبعه الكنيسة ومفسروها، إلى الاستقراء الذي يبدأ بالحواس والتجريب والجزئيات في مسالة الطبيعة، كي يصل إلى قوانين السببية الحتمية.

وأكمل لوك في ما بعد عمل بيكون، حيث حصر الفلسفة في الفكر العلمي أساساً، أي ما يمكن إخضاعه للتجريب الذي يؤدي إلى فهم العالم عقلياً، ووضع الأمبريقية التي تذهب إلى أنه لا معرفة خارج الخبرات الإنسانية. فقط المحسوس والملموس والقابل للتجريب والقياس هو الحقيقي. ولقد كان كل من بيكون ولوك مناضلين سياسيين في الأصل. وكانت فلسفتهم في العلم تثور على نظرية الجوهر وعلى الأحادية الشمولية الغيبية واليقين الديني القطعي. كانت الحسية التجريبية تهدف إلى محو كل أثر لما هو مرجعية غيبية، وما يقوم عليها من مشروعية الحكم الإلهي. وبذلك توضع المبادرة في يد الإنسان الصانع ورجل الأعمال. أكمل هيوم هذه الثورة الفلسفية العلمية حين ذهب إلى أن كل ما لا يندرج ضمن المعرفة الحسية التجريبية، أو المعرفة التحليلية المنطقية التي تستخلص العلاقات الزمنية بين الأفكار، هو هراء يجب عدم الالتفات إليه ولا التوقف عنده. ووصلت التجريبية إلى أقصى درجاتها تطرفاً مع جون ستيوارت مل الذي أكد بحزم أن الاستقراء هو منطق العلم والعمل والتفكير والحياة والسبيل المعرفي الواحد الوحيد المثمر الذي يمتلكه الإنسان لإحكام سيطرة العقل على الواقع وتسييره وصولاً إلى تغييره.

كل فلاسفة العلم هؤلاء الذين أحلوا سلطان العقل محل سلطان الغيب كانوا مصلحين سياسيين ومناضلين ضد سلطة الكنيسة والحكم الإلهي، وهو ما خدم البورجوازية الصناعية والتجارية ورسخ سلطتها بحيث فصلت الدولة وتسيير شؤون الحياة عن المرجعيات الغيبية. وفي موازاة سلطان العقل علمياً قامت معركة العقل ضد اللاهوت في العلوم الإنسانية في فرنسا، وصولاً إلى السيطرة على السوربون التي كانت في الأصل كلية لللاهوت، وطرده اللاهوتيين منها، وإحلال تعليم عقلانية ابن رشد محل تعليمهم. وأتى كل من أوغيسست



كونت وتلميذه دوركهام اللذين وضعوا الطريقة الوضعية المنطقية في دراسة الظواهر الاجتماعية وتفسيرها باعتبارها خاضعة لقوانين الطبيعة وحركة المجتمع. وهكذا درس كونت العلاقات الاجتماعية في تماثلها وتعاقبها بعيداً عن الرؤية اللاهوتية الميتافيزيقية، حيث قال بمذهب الفيزياء الاجتماعية بما فيها من ديناميكا وإستاتيكا. وطوّر دوركهام هذا المذهب من خلال الإقرار بأن لكل ظاهرة علة ووظيفة على غرار البيولوجيا، مع نفي قاطع للغائية الغيبية. وتوج داروين في نظرية التطور نفس الغائية الغيبية للإنسان وخلقه. وهكذا قضى على كل أثر للغيبية وكل مشروعية للحكم الإلهي وما يؤدي إليه من استبداد، من خلال ثورة فلسفة العلم التي تكاملت مع الثورة المؤسسية التمثيلية.

استمرت ثورة سلطان العقل من خلال الأجيال اللاحقة من فلاسفة العلم الذين أحكموا منطق العقل من خلال مدرسة الوضعية المنطقية التي تشغل على دقة وإحكام صياغة القضايا، حيث كان كل من لودفيغ فجنشتاين وبرتtrand راسل من أكبر روادها. وبعدها أتى جيل جديد أطلق العقل من عقاله وقيوده إلى آفاق اللامحدود. وتم في كل من الفيزياء (نظرية الكوانتوم) وفلسفة العلم إحلال الاحتمالية وانعدام اليقين محل الحتمية العلمية. وفتح باب تجاوز العقل لذاته ومنهجياته وطروحاته حيث أصبحت المعرفة تقوم على النقض والتجاوز والقطعية مع المسلمات. وهو ما أتاح انطلاق العقول في استكشاف كل ما هو جديد وخارج عن المألوف، في ما يطلق عليه تسمية القطعية المعرفية التي قال بها باشلار وبوبر باعتبارها أساس تقدم المعرفة التي تنسف ما سبقها. وبذلك دخلنا في ما بعد الحداثة وأبطالها من المفكرين والفلاسفة الذين مهدوا الثورة ما بعد التكنولوجيا التي يشهدها العالم حالياً، والتي نسفت النظم التقليدية التي أرسنها الثورة الصناعية وبورجوازيته، وصولاً إلى بروز العولمة وأسواقها وتقنياتها المعلوماتية.

ذلك هو التوارث الخلاق المتجاوز لذاته الذي انخرط فيه الغرب وبسط سيطرته على الكون بزعامه أميركا راهناً. لقد حررت المبادرة والإرادة الإنسانية من كل قيود التوارث الآسن القائم على المرجعيات الغيبية والحق الإلهي الذي يوطد سلطات الاستبداد. إلا أن تحرير الإنسان قد اقتضى ثورة على صعيد الفكر الإنساني. وكانت هذه الثورة تهدف إلى إطلاق طاقات الإنسان الحية واستثمار قدراته وتعهدتها بالتنمية والتدريب والرعاية والصيانة، ما يمثل أهم وظائف علم النفس.

تتقدم الحياة من خلال تجاوز ذاتها، وتتقدم أجيال الأبناء من خلال تجاوز الآباء ومرجعياتهم وقيمتياتهم القبلية، ما يعرف رمزياً بقتل الأب. أما في مجتمعاتنا فما زال الآباء يقتلون الأبناء رمزياً من خلال اتباعهم وإخضاعهم والحرب على تجليات طاقاتهم الحية، ومحاولة تشكيلهم على غرار ذاتهم بهدف استمرار هذه الذوات في الأبناء. تلك هي واحدة من بنى الاستبداد الخفية التي تغذي سلطات الاستبداد الثقافي والديني، وبالتالي تكرر الاستبداد السياسي.

ها قد مضى ما يزيد على قرن من الزمان على مناداة المجتمعات العربية بالديموقراطية والتحرير والتنمية التي وضعت لها المخططات الكثيرة، وتراكت الأدبيات التي تناول شعارات الديمقراطية والتحرير. تهمس المفكرون لهذه الشعارات واعتقدوا أنها يمكن أن تتحقق من خلال العمل السياسي والفكري الفوقي وحده. إلا أن تجربة الغرب المديدة التي ألمحنا إليها، والتي عرضها صفوان في كتابه هذا، تقدم لنا درساً يجب أن نعيه جيداً ونتعلمه. وهو أن النهضة لا بد لها من أن تتأسس على مشروع كبير اقتصادي إنتاجي إنجازي يفرض التغيير السياسي والمؤسسي، كما يفرض تنمية الإنسان وإطلاق طاقاته الحية. ذلك هو الجميل والواعد في الشعار الأساسي الذي رفعته جماهير الربيع العربي: الخبز والكرامة وفرض الإرادة. وهي المهمة التي لا بد أن تطرح على فعاليات المجتمع الحية. مشروع بناء كبير والتنمية متكاملة الأبعاد ومتلازمة المسارات، وليس مجرد تغيير حكام. فكما تستلزم الثورة الصناعية ثورة سياسية وفكرية وتحرير الإنسان وإطلاق طاقاته الحية، كذلك فإن هذه الأخيرة لا تجد تجسيدها العملي إلا بمشروع إنماء اقتصادي كبير. ولهذا فإن مشاريع التنمية الصناعية من دون تنمية ثقافية وتحرير طاقات الإنسان قد تبقى مسألة برانية: استيراد تقنيات ومصانع وتشغيلها وليس إبداع تكنولوجيا، مما كما تدور شعارات ومحاولات التغيير الثقافي والسياسي في الفراغ من دون مشروع نهضة اقتصادية. تلك هي الدعوة التي يحاول هذا العمل البرهنة عليها وتوجيهها إلينا.

## مقدمة

عندما بدأت كتابة هذه الصفحات التي نقرأها في هذا الكتاب، منذ ما يقرب من أربعين سنة، لم يكن لدي أي فكرة عن العلاقات ما بين الكتابة والسلطة. ترجع بداية هذا المشروع في الواقع إلى حزيران ١٩٦٧، بعد هزيمة حرب الأيام الستة التي بدت لي بمثابة هزيمة بمحمل العالم الثالث باستثناء الهند.

صحيح أن الغرب حارب حركات تحرير العالم الثالث بلا هوادة، ومن دون التقيد بأي مبدأ قانوني أو إنساني، إلا أن من الصحيح بالقدر نفسه القول إنه باستثناء الهند، كانت السلطة السياسية في دول العالم الثالث بيد حاكم واحد. لم يكن بالإمكان سماع أي صوت غير صوته، ولا التعبير عن أي رأي غير رأيه، إذ لم يكن مصير أي شخص يتجرأ على المغامرة في طريق الانشقاق سوى السجن أو الموت.

وفوق ذلك، مع أن كلمة "التحرير" قد أثارت الحماسة الملتهبة بين الجماهير، وهي حماسة ملموسة في كتابات فرانز فانون، فإن كلمة التحرير ذاتها اقتصرت على مجرد الإشارة إلى هدف وحيد هو التحرر من الاستعمار و/أو من الضغوط السياسية التي كانت تمارسها القوتان العظميان في تلك المرحلة، ومن دون تبيان كيفية بلوغ التحرير، ولا بيان ماذا يتعين عمله بعد بلوغه. ولقد قادتني "سلطة سحر الكلمات المهيمنة" حسب قول إحدى الصديقات (تقصد كلمة التحرير وسواها من الشعارات)، وحيرتني بصدد احتكار السلطة السياسية، إلى اتخاذ قرار بترجمة نص ظهر لأول مرة في فرنسا في عام ١٩٣٠ بعنوان "مقال في العبودية المختارة" لآيتيان دي لا بويسيه، إلى العربية. ولقد أعيد نشر هذا النص في العديد من المناسبات، وخصوصاً في فترات الاضطرابات السياسية، كما أنه ما زال يقرأ باستمرار. أطلقت عليه الجماعات الثورية تسمية "ضد الواحد". تمثلت فكرة

دي لا بويسيه في محاولة فهم كيف يمكن رجلاً واحداً، وهو العاهل أو السلطان، أن يخضع للعبودية ملايين الناس. وبالطبع كان لهذه المقالة تأثير بالغ علي.

لقد ولدت ونشأت في بلد، هو مصر، كان تحت الحماية البريطانية. رأى جلاستون، الذي أعطى الأوامر للأسطول الإنجليزي يقصف الإسكندرية في عام ١٨٧٠، أن احتلال هذا البلد هو بمثابة عمل حضاري. ويمكننا القول، مع بعض التجاوز، إن كلامه لم يكن خلواً تماماً من الصحة، حيث أدخل الإنكليز، لأول مرة في الشرق الأوسط وتاريخه المديد، فكرتين لم يسبق سماعهما مطلقاً من قبل، حتى ولا في الحلم، أي: فصل السلطات، والديموقراطية. "كانت السلطات الثلاث التشريعية التنفيذية والقضائية، التي تُبنى الدولة الحديثة على الفصل بينها، مركزة في اليد المسيطرة ذاتها التي كانت تضبط كل الشؤون العامة، في الأنظمة الشمولية"<sup>١</sup>. صحيح أن مجالات النشاط الثلاثة، التشريعية والتنفيذية والقضائية، كانت متميزة، إلا أن هذا التمايز بقي نظرياً محضاً، "كانت تتداخل فيما بينها كل الوقت، في التطبيق العملي، وكانت خاضعة دوماً، سواء كل بمفردها أو كلها معاً لراي الخليفة أو السلطان، أو الأمير. وكان هذا الرأي فوق كل قانون وضبط حكم، مع أنه غالباً ما كانت تجري محاولات لإسباغ مظهر من المشروعية عليها"<sup>٢</sup>. ولم يكن من الصعب إسباغ هذا المظهر. صحيح أن القضاة كانوا يستمدون نفوذهم من القرآن ومن التقاليد القضائية، إلا أنه باستثناء عدد محدود من الحالات التي كانت تتوقف على طبائع القاضي، وليس على طبيعة النظام، كان بإمكان الخليفة دوماً الحصول على تأويل النص الذي يناسبه أكثر من سواه. وما زاد من سهولة الأمر أنه لم يكن هناك أي مجلس قضاء أعلى يوفر الضمانات اللازمة لاستقلال القضاء. كان يمكن استبدال القضاة أو إقالتهم حيث كانوا خاضعين مباشرة لسلطة الخليفة. وباختصار، كانت مأساة يوم الدين السماوية تُمثل على الأرض بمثابة مسرحية هزلية نذلة.

أما في ما يتعلق بالديموقراطية، فلقد كان من المستهجن التفكير في أن البريطانيين أدخلوا

١ Mohamed A. Inan, *Islamic Egypt*, Le Caire 1933, Chop.2

٢ المصدر نفسه.

٣ تعني كلمة "خليفة" من "يخلف الرسول" (مما يتضمن تناقضاً في التعبير، لأن محمداً كان خاتم الأنبياء)، الخليفة هو يمثل الله على الأرض. الادعاء بأن الخليفة يمثل محمداً أو ما كان مثله محمداً هو، إذا توخينا الدقة، نوع من التجديف.

نظام تعدد الأحزاب بغية التخفيف من حدة صراع الطبقات، في بلد من مثل مصر، حيث كانت تعتبر المرتبة وفوارق المكانات الاجتماعية على الدوام بمثابة وقائع طبيعية تقوم على الإرادة الإلهية. من الأكثر ترجيحاً أن إدخال الأحزاب السياسية كان تطبيقاً لمبدأ: "فرق تسد". ومع ذلك جرى إدخال معجم مفردات جديد كلياً: الدستور، التمثيل، الانتخاب، الأحزاب، البرلمان، الأكثرية والأقلية، إلخ. والحق يقال إن هذه الأحزاب لم تكن تمثل أي تيار اجتماعي فعلي، باستثناء حزب الوفد الذي جسد الطموح المشترك في الاستقلال. وكان هناك أيضاً حزب الإخوان المسلمين الذي أسسه حسن البنا في عام ١٩٢٨، والذي استعمل اسم الله للحصول على أشكال الدعم التي أتاحت له تحويل هذا الاسم إلى سلطة سياسية أو زمنية، إلا أن هذا الحزب كان غير شرعي في نظر قوانين الدولة، لأن الدولة كانت إسلامية حسب الدستور. وهكذا فالحزب الإسلامي كان يتعين اعتباره عدواً يُسائل مشروعية الدولة. أما كل الأحزاب الأخرى فكانت تعتبر إما بمثابة صنعة المندوب السامي البريطاني، أو صنعة القصر الملكي. وباختصار، لم تخلق الكلمات الوقائع، بل هي خلقت بالفعل أساليب في التفكير يمكن من دون مبالغة وصفها بأنها ثورية. ولأول مرة في تاريخ البلد انطلقت مناظرة جادة بفضل محمد عبده "أبو الإصلاح الإسلامي" مع مشروعه لتكييف الإسلام مع متطلبات العصر، كما ظهرت حركات لتحرير النساء بفضل قاسم أمين. ولقد شكك علي عبد الرازق لأول مرة بالأسس الإسلامية لفكرة الخليفة. كان هذا الانتقاد لمفهوم الخليفة الوحيد والشرعي للرسول، والذي كان ذا أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي، كان ذا أثر تخريبي أكبر، لدرجة أن الملك فؤاد الذي عينه الإنكليز، أراد الحصول على مزيد من الشرعية من خلال الادعاء أنه من نسل الرسول، وبالتالي أنه خليفة. اجتمع مجلس العلماء المكوّن من أربعة وعشرين عضواً برئاسة شيخ الأزهر، وهو أكبر جامعة للدراسات الإسلامية في العالم الإسلامي، في لجنة تفصي حقائق بتاريخ ١٢ آب/أغسطس عام ١٩٢٥، وقرر بالإجماع نزع لقب عالم أو دكتور من علي عبد الرازق، ومنعه من ممارسة أي مسؤولية في التدريس أو القضاء. ونشر طه حسين في عام ١٩٢٦ كتابه بعنوان في الشعر الجاهلي، حيث قدم القرآن بمثابة الأثر الرائع الذي يعكس أفضل من أي عمل آخر الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية في زمن محمد. ومرة أخرى أرسل شيخ الأزهر تقريراً كتبه دكاترة الجامعة إلى المدعي العام يتهم طه حسين بالتجديف وبجرائم أخرى مماثلة.

أقر المدعي العام بأن الحقيقة هي، ولا شك، إلى جانب الدكاترة الأفاضل، إلا أنه تبين له أن المؤلف قد كتب من دون قصد إجرامي، ما جعله يخطئ ويعتبر ما كتب بمثابة حقيقة، ولذلك فقد حفظ القضية. وعلينا أن نقر بأنه لا توجد دولة إسلامية في أيامنا تسمح بنشر كتب كهذه، وأنها تعرض حياة المؤلفين للخطر تحت تهديدات الأصوليين. ولقد ترجمت أعمال ماركس وداروين في هذه الفترة من الاختمار الفكري. وبفضل أحمد أمين أنشئت لجنة للكتابة والترجمة والنشر، أصدرت بعضاً من أفضل الترجمات المكتوبة بالعربية، وما زال كل من هم في سني يتذكرون التأثير الانفعالي الشعري العميق الذي أثارته الترجمة التي لا مثيل لها لرائعة توماس هاردي بعنوان *ress* من قبل فخري أبو السعود. كانت تلك حقيقة الفترة الأخيرة التي قدمت كتاباً كباراً بالعربية الفصحى، والكثير منا مدينون بتعلقهم، هذا إذا لم أقل تبجيلهم لهذه اللغة، إلى أنها كانت لغة حركتنا الوطنية، كما يحلو لصديقي القديم محمد عودة أن يقول.

غادرت مصر إلى فرنسا في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٤٦. استمرت الحركة الوطنية بمزيد من الزخم بعد الحرب. ومع أن الإنجليز كانوا حريصين على الاحتفاظ بقناة السويس والإبقاء على تحكمهم فيها بالقوة العسكرية، إلا أنهم كانوا على استعداد لترك بقية البلد، عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو. في الواقع لم تكن تلك ثورة، بل انقلاباً عسكرياً تبعاً للأسلوب المؤلف في جمهوريات الموز. ومنذ الأيام الأولى أطلقت مجموعة الضباط التي قامت بهذا الانقلاب أمر اليوم الذي كان له رائحة الأنا الأعلى، والتي يمكن التعرف إليها تماماً: "الوحدة، النظام، العمل" مما هو أبعد من أن يعكس طموحات الشعب كما هي حال شعار "حرية، إخاء، مساواة". بعد فترة وجيزة، أعلن مصنع للنسيج الاضراب في قرية صغيرة بالقرب من الإسكندرية (كفر الدوار). جرى إعدام عاملين علناً. وكان ذلك تعليقاً مشهوداً على هذا الشعار الثلاثي: الوحدة في الرعب، النظام في الاستعباد، والعمل أو الموت. إلا أن الأكثر إثارة للدهشة تمثل في السرعة والسهولة التي ألغيت فيها المواقع المتقدمة للحركة الوطنية. طُرد ستون أستاذاً جامعياً، بمن فيهم الكاتب والناقد الكبير لويس عوض على عجل، الأمر الذي كان له نتيجة عملية تمثلت في القضاء على أي دراسات عليا في البلد. جرى تهميش كبار الكتاب، واختفت لجنة أحمد أمين للكتابة والترجمة والنشر، كما جرى تأميم الصحافة ودور النشر. ولم يكن ذلك كل شيء. ألغيت الأحزاب السياسية وجرى

التشهير بوجود نظام التعدد الحزبي باعتباره مصدر كل العلل، وقمعت المعارضة بوحشية: ومع أن عدد الشيوعيين كان محدوداً كي يمثلوا تهديداً للدولة، إلا أنهم تعرضوا للتعذيب، والسجن، أو النفي إلى معسكرات في الصحراء، وأصاب الإخوان المسلمين المصير ذاته، مع أن الحكومة كان يمكن أن يكون لديها مبررات أكبر للخوف منهم.

غادرت الإسكندرية، وهي المدينة التي نشأت وتعلمت فيها، إلى أوروبا من دون أن أتعرف إلى بلدي حقيقة، إذ لم يكن لدي أدنى فكرة عن الحياة في الريف، ولم يسبق لي أبداً أن التقيت بذلك الوجه الذي تستمد منه مصر وجودها المادي، وكيانها الحقيقي، أعني: الفلاح المصري.

وكنت أحمل، فوق ذلك، بعض الإعجاب بناصر باعتباره أحد زعماء سياسة عدم الانحياز في باندونغ (١٩٥٥) مع كل من شو إن لاي، نهرو ونيتو. منعني هذان العاملان، أي جهلي ببلدي ذاته، وتقديري لهذه السياسة الخارجية، من رؤية أسباب عجز التجربة السياسية المكتسبة من خلال الحركة الوطنية عن إبداء أي مقاومة في وجه مشروع تمثل هدفه المعلن في استعادة قيام حكومة ذات سلطة مطلقة. ولم أنهم سبب غياب هذه المقاومة إلا بعد عدة سنوات كنت أعود فيها إلى مصر بانتظام، وعشت فيها في فترات مختلفة، خلال حياة ناصر وبعد موته. وعندما أدركت أخيراً ما الذي كان يجري، دهشت لتأخري في عدم فهمي له. في الواقع، أظهر غياب مقاومة قيام حاكم مطلق أن مجمل المفاهيم السياسية التي أدخلها البريطانيون لم يكن لها أي تأثير، خارجاً عن الطلاب، والمتخرجين في الجامعات والمدارس العليا ممن يعيشون في مدن كبرى ذات انفتاح عالمي متفاوت في مقداره، بينما بقية السكان، وأعني الفلاحين، ظلوا مبعدين عن هذه النماذج من التفكير ويعيشون خارج التاريخ، في انتظار مجرد الخلاص الذي سيأتي من رجل يدعو إلى الوحدة ضد التعددية. إلا أن تجربتي السياسية باعتباري مواطناً مصرياً، هيأتني، أثناء هزيمة ١٩٦٧، للعثور على أسباب هذه الهزيمة في طبيعة مؤسساتنا ونوعيتها وليس في الأعداء الواهية المعتادة التي تضع كل شيء على حساب "الاستعمار".

تلك هي الوضعية التي أوصلتني إلى الاهتمام بكتاب من القرن السادس عشر الأوروبي، إلا أنني لا أستطيع القول إن دي لا بويسيه أعطاني جواباً شافياً لمعرفة لماذا ترغب الشعوب إلى هذا الحد في الاندفاع إلى الخضوع أو أن تصبح عبيداً لفرد واحد. إلا أن ترجمته

أعطتني الفرصة لكتابة مقدمة حاولت فيها أن أشرح الأسباب التي جعلت الحضارات الغربية تتجاوز الأخرى، وخصوصاً الحضارات الإسلامية الأكثر قرباً، وبالتالي الأكثر تنافسية مع أوروبا.

بدائي أن العامل الحاسم تمثل في زيادة الاختراعات المتعلقة بوسائل الإنتاج ومراكمة رأس المال الذي لازم توسع التجارة. ولقد أتاحت تطورات في الملاحة اكتشاف أميركا، وجعلت ممكناً للسفن الالتفاف على رأس الرجاء الصالح (ما أدى عملياً إلى محاصرة المجتمعات الإسلامية التي كانت في حالة ثبات)، وبالتالي أتاحت وصل العالم من طرفيه بحراً. ولقد أتاحت توسع التجارة، على الأخص، خلق المتجسديات باعتبارها كيانات معنوية تستمر عبر الزمن، على عكس الأجيال المكونة من أفراد زائلين. كانت هذه المتجسديات تنظم على أسس تمثيلية، تنتخب من ضمن أعضائها. ومع ظهور "فكرة التمثيل" تزايد نفوذ البرلمان، وأصبح بإمكان الطبقات المحكومة إعطاء رأيها، وأحياناً فرض مطالبها على الملك. وفوق ذلك، برزت طبقة جديدة، هي طبقة المثقفين التي مارست دوراً مختلفاً جداً في المجتمعات الأوروبية عن الدور الذي مارسته في المجتمعات الإسلامية. كانت هي التي أدت إلى إنشاء الجامعات في إيطاليا، وإنجلترا، وفرنسا. تطابقت كل هذه الأحداث مع قيام الدول - الأوطان تحت سيطرة الملوك، وما رافقها من صراعات وحروب ليس فقط بين الملوك، بل بينهم وبين الكنيسة أيضاً.

قبل عصر النهضة في القرن الثاني عشر، كانت أوروبا تنظم في مجتمع موحد تحت سلطة الأمير البابوي. وهكذا كان يقع على عاتق الكنيسة عبء الدفاع عن حدود أوروبا، وتنظيم الحملات الصليبية وحل مشكلات الصحة والاقتصاد - وخصوصاً محاربة الأوبئة - وكذلك عبء التربية - وخصوصاً على الصعيد الديني. كانت هذه الوحدة ترتب فلسفة سياسية تلخص في قضيتين أو بالأحرى في مجازين؛ يقارن أولهما المجتمع بجسد ساقاه (الحرفيون والفلاحون) على الأرض، ورأسه (البابا) يطاول السماء. ويقارن المجاز الثاني المجتمع بالأسرة. وكما أن للأسرة رباً غير منازع، هو الأب، كذلك فإن للمجتمع رئيساً غير منازع، هو السلطان<sup>١</sup>.

١ الكلمة العربية التي تدل على المسؤول تعني حرفياً الشخص المعرض للمساءلة. وهكذا يمكن تلخيص بنية السلطة السياسية في الشرق الأوسط في مفارقة لا تستقيم: المعرض للمساءلة لا يقبل المساءلة.



تطابقت صحوة أوروبا مع نهاية فكرة الوحدة هذه، التي يعبر عنها بمجاز الجسد، كي يحل محلها واقع التعددية والصراعات ما بين الدول والأوطان، كما بين الطبقات الاجتماعية. تعود جذور العبودية المختارة إلى التعلق بصورة الأب المثالي، مما "يُفْل" الشعب من خلال إبقائه في حالة اتكال، بحيث إنه كلما ازدادت قسوة السلطان، زاد نعي رعاياه خسارتهم له.

لا يعني واقع أن أوروبا كانت أرض المسيحية والبابا على رأسها، أن حكومة الواحد هي بالضرورة ثيوقراطية (الحكم الإلهي)، إذ إن الحكام الذين سببوا الهزائم الأكثر كارثية لشعوبهم، سواء في الغرب أو في العالم الثالث، كانوا دوماً حكاماً زمنيين. فالحكومة شيء والدين شيء آخر. وهكذا فأي مشروع لوضع السلطتين - الزمنية والروحية - في يد واحدة يفتر إلى الحصافة، لأنه مهما كان المذهب الذي يمكن أن يدعيه الحاكم الواحد، فلن يعدو كونه إنساناً ينطبق عليه حكم أكتون: "السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة". وفوق ذلك، ما دام هو كائناً إنسانياً، فالحاكم معرض لارتكاب أخطاء تبقى من دون علاج طالما احتكر السلطة.

إلا أن السؤال الحاسم يتمثل في ما يأتي: لماذا يمثل الحاكم ضرورة؟

يحتاج كل مجتمع إنساني إلى الاعتقاد بحقيقة متسامية، خالصة منزهة عن كل عدوى من خطأ أو زلل، حقيقة يجمع عليها أعضاء ذلك المجتمع، ويتوافقون جميعاً معها، حقيقة تمثل المحك النهائي الذي يمثل المرجع حين يتطلب الأمر الاختيار بين ما يجب أن يكون وما يجب عدم الإقدام عليه. في الواقع إنها الضمانة الوحيدة لوجود نظام ثابت الدوام، والذي من دونه يصبح من المستحيل التصرف راهناً، استباقاً لما سيحدث في الغد. من المعروف أن الآلهة اليونانية كانت عديمة الضمير. كانوا مخادعين لا يلتزمون بأي عهد يقطعونه، ويخونون كل التحالفات. كانوا باختصار يمثلون الرغبات والشهوات ولا يعبرون عن المثل. ولذلك وضع اليونانيون الحقيقة في قلب الطبيعة ذاته، أي حركة النجوم المنتظمة التي تعود دوماً إلى مكانها ذاته، انسجماً مع كمال المحرك الأول الذي قال به أرسطو. من المعروف في أيامنا أن إحدى العواقب الرئيسة لنظرية الكوانتوم تتمثل في إلقاء ظلال الشك على الحتمية الميكانيكية. إلا أن أينشتاين رفض هذا الاستنتاج معبراً عن رفضه من خلال هذه

الصيغة الشهيرة: "الإله حاذق إلا أنه لا يلعب النرد"<sup>١</sup>. تذكرنا أهمية هذا القول المأثور بأنه بعد انتهاء تعدد الآلهة وبداية أحادية الألوهية، أصبحت الحقيقة موضوعاً في الإله ذاته. ويمثل البرهان على ذلك في تصور ديكرات للحقائق الأزلية بمثابة صنعة الإرادة الإلهية. ما هو الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من كل ذلك؟ أول استنتاج هو أن الديكتاتوريين المعاصرين يحكمون على الدوام باسم بعض الحقائق العليا التي يدعون تمثيلها، وينون عليها شرعيتهم. ولذلك فهم يسارعون إلى إخفاء جرائمهم البشعة، وخصوصاً إبادة الجنس، إذ إنه، مهما بلغ تواطؤ الشعب، من الصعب دوماً التوفيق ما بين جرائم كهذه وبين ادعاء مزعوم بتمثيل الحقيقة.

ويتعين أن نضيف أنه بالرغم من الحقد الذي تثيره الأديان التوحيدية، ما زالت تمثل أساساً صلباً لحياة مجتمعاتنا، وستظل الحال على هذا المنوال ما بقي الدين يعتبر بمثابة موضع الحقيقة العليا التي تتجاوز كلاً من العلم والفلسفة. وإذا استمر دوام هذه الوضعية، وما لم تظهر مقومات مذهب جديد يتطلب توافقاً كونياً، كما كانت عليه حال الماركسية - اللينينية، فإن التوحيد سيستمر بمثابة المرجع الجوهرى للحياة الاجتماعية.

أخيراً، إذا كانت إرادة الحكم باسم الدين تُعدّ سفسطة - أو زوراً وبهتاناً في بعض الأحيان - فإن محاربة الدين هي علامة على تعامٍ دفع الاتحاد السوفياتي ثمنه من خلال زواله.

ويمكن القول، من وجهة النظر هذه، إن الآباء المؤسسين الذين كتبوا دستور الولايات المتحدة أظهروا قسطاً أكبر من الحكمة. يشترط التعديل الأول، الذي أقرّ في ديسمبر/كانون الأول ١٧٩١ ألا يسنّ الكونغرس أي قانون يتعلق بالمعتقدات الدينية يمكن أن يمنع ممارستها بحرية، وألا يحّد من حرية القول والصحافة، أو حق الشعب في التجمع السلمي والطلب إلى الحكومة أن تصّحّ ضرراً لحق به. والواقع أن هذه الحكومة لم تتدخل في مشكلة دينية إلا مرة واحدة في عام ١٨٠٠، وذلك عندما أعلنت إحدى الملل (المورمون) أن الزواج من أكثر من امرأة واحدة هو واجب ديني على الرجال. تولت المحكمة العليا زمام القضية، وأصدرت حكمها بوجوب امتثال هذه الملّة للقوانين الفدرالية التي تحظر تعدد الزوجات

١ انظر: Abraham Pais, *Subtle is the Lord... The Science and Life of Albert Einstein*, Oxford, Oxford University press, 1982.

- وكان هذا الحكم يعكس ببساطة العادة المتعارف عليها.

أعود الآن إلى سؤال دي لا بويسيه: كيف يتمكن رجل واحد من إجبار ملايين من الرجال الآخرين على الرضوخ للطغيان الذي يقمعهم ويذلهم؟ فإذا تذكرنا أن العبودية تجدد جذورها في تعلق لامشروط بتلك الوحدة التي تتجسد في تكامل الجسد (إلى حد رفض أي فارق باعتباره يمثل تهديداً للحياة)، كما تجدد جذورها في التعلق الذي لا يقل عنه حماسة بصورة الأب المثالي المتعالي على كل الحدود الإنسانية، أو تبعاً لقول القديس إنسلم، ذلك الأب المثالي فائق الكبر بحيث لا يمكن تصور ما يتجاوزه (ما يمثل فكرة لا تستقيم، تماماً كفكرة عدد أكبر من كل الأعداد الطبيعية الأخرى)، سنفهم عندها سؤال دي لا بويسيه بنحو أفضل من خلال قلبه إلى عكسه: كيف يتأتى أن تفكر بعض المجتمعات في أن الحاكم يتعين عليه تحمل مسؤولية أعماله أمام رعاياه، بدلاً من الفصل شبه الطبيعي ما بينه وبينهم؟ وإذا أقررنا بأن فكرة مسؤولية أولئك الذين يحكمون تجاه محكوميهام تمثل لب قضية الديمقراطية، يصبح السؤال: كيف يمكن نظاماً ديمقراطياً أن ينشأ أصلاً؟ والسؤال في ما يتعلق بأوروبا لا يتمثل في خضوعها، بل هو يتمثل في تحركها نحو الديمقراطية.

كانت الديمقراطية، وهي الأبعد من أن تكون النظام السياسي الأكثر ملائمة للميول العنيفة للحياة الاجتماعية، جديدة كل الجدة، إذ ظهرت في أثينا حيث ازدهرت ما بين العشرين الرابع والخامس قبل الميلاد. ولقد عاودت الظهور في الولايات المتحدة في أواخر القرن الثامن عشر، وفي أوروبا في القرن التاسع عشر، وليس من قبيل الصدفة أن يقدم أخيل، الذي يعرف بالتأكيد عما يتكلم، في عمله بعنوان "المتوسلات"، التعارض ما بين مراسيم فرعون وقرارات الشعب الحر بمثابة التعارض ما بين المكتوب والشفهي. كانت "الدانائيدات" قد هربت من مصر طلباً للحماية. طلب رسول من رسل الفرعون منهن العودة باسم المصريين، فأجابه ملك أرغوس، الذي كان يرفض اتخاذ أي قرار "قبل إبلاغ كل أهالي أرغوس بوقائعه" بالرد الآتي:

"سوف تصطحب هاته النسوة، إذا وافقن عن طيب خاطر، وعندما تتمكن من إقناعهن بتقديم أسباب تتصف بالحب والإجلال. ولقد أعلن شعب أرغوس، بإجماع الأصوات،

١ الدانائيدات نسبة إلى Damide تلك الفتاة التي حبسها ملك أرغوس لأن العرافة أخبرته أنه سوف تنجب صبياً يقتله حين يكبر، إلا أن زيوس الذي تيم بحبها اقتحم عليها حبسها فأنجبت منه برسيوس.

قراره الذي لا عودة عنه: بأنه لن يترك مطلقاً مجموعة من النساء فريسة للعنف". وهو ما شكل مسماراً مغروساً بقوة وعمق بحيث لا يمكن زعزعته. "لا يتعلق الأمر بكلمات منقوشة على ألواح، أو مسجلة على لفائف البردي: أنت هنا تسمع اللغة الواضحة من فم حر. اغرب سريعاً عن ناظري"<sup>١</sup>.

في الواقع، إن مكانة الكتابة ووظيفتها كانتا جد مختلفتين في اليونان القديمة عنها في مصر القديمة وفي الشرق الأوسط عموماً، ما يتيح لي الرد على السؤال الذي سبق لي طرحه على دي لا بويسيه. سوف يمثل العرض الدقيق لهذا الفارق موضوع الفصل السادس، لكن أودّ هنا لفت انتباه القارئ إلى عدد من النقاط.

بادئ ذي بدء كان ملوك الدول القديمة، سواء على ضفاف النيل أو في العراق القديم، يفصلون بنحو قاطع ما بين اللغة المستعملة في الكتابات الإدارية، ووثائق الدولة، وكل من الأدب والطب والسحر والرياضيات والدين إلخ، وبين لغة الحياة اليومية، حيث كانوا يسبقون على اللغة الأولى بوضوح طابعاً مقدساً، أو حتى أصلاً إلهياً أو يردونها إلى السلف. بينما كانت تعتبر اللغة الأم، على العكس من ذلك، بمثابة لهجة شعبية قاصرة عن التعبير عن أفكار سامية أو دلالة عميقة أو مشاعر راقية، مما ليس له من مكان سوى في الأذهان المثقفة. موجز القول، كان هؤلاء الحكام القدماء (الذين قد يكون لهم على الأقل العذر في أنهم كانوا من مؤسسي الإمبراطوريات) يتصرفون تجاه رعاياهم تماماً على غرار السلطة المستعمرة، إذ يبدأ المستعمر، منذ اللحظة التي يحتل فيها دولة أجنبية، بتبخيس لغة السكان الأصليين كي يدفعهم إلى تبخيس أنفسهم، ويمتنعون بالتالي عن التفكير في الحرية التي لا يستحقونها والتي لا تلائمهم.

ولقد لُحّت أعلاه إلى نزعة الشعوب إلى الاتكال على الأقل، إن لم يكن إلى العبودية. إلا أن ذلك لا يحول دون إرادة كل امرئ أن يكون ملكاً، يدافع من شهوته إلى السلطة. المستبدون يصنعون الشعوب على صورتهم. ونحن نعرف الوسائل التي يستعملونها كي يعزّزوا هذه النزعة: فيشترون الذم، وينشرون الخوف، وأهم من هذا كله يمنعون كل تجمع أو رابطة يمكن أن تتيح للشعب بناء تضامن يدافع عن حقوقه. كان الناس يجمعون لبناء

١ Eschyle, *Les supplantes*, Trad. P. Mazon, Paris, Les Belles Lettres, 1921, 1925.

مزدوجين هو من قبل المؤلف.

الأهرام والمدافن والمعابد والقصور، والنصب التذكارية، ولكن لم يكن يسمح لهم أبداً بالترابط بغية تحقيق هدف مشترك يختارونه بأنفسهم.

ومن دون أي ثقافة تعاونية سيكون من الأسهل على الحاكم سحق التظاهرات، واعتقال القادة، الذين "يختفون" في أغلب الأحيان، عندما ينزل الشعب إلى الشارع بسبب ظلمه أو خيئته أو "غطرسته". وقد تتجدد تظاهرات المقاومة، إلا أنها لن تتوصل أبداً إلى قلب النظام. إنها تشجع في أحسن الأحوال على وقوع انقلاب عسكري. لكن هذه السياسات ليس لها من هدف سوى إبقاء الرعايا تحت نير الملك، إلا أن الأدهى يتمثل في سياسة تجعل الرعايا، تبعاً لأقوال دي لا بويسيه، "يتخلون عن فكرة الحرية ذاتها" أو هم يكتفون بتذكرها في حالة من الاستكانة المرة.

علام يقوم هذا النمط من السياسة؟ ذلك هو السؤال الذي لم يجد له دي لا بويسيه أبداً جواباً، مما قد يرجع ربما إلى أنه لم يعيش في الشرق الأوسط.

تمثلت هذه السياسة في إقصاء اللغة الأم من المدارس. كان يحق فقط للغة تستمد وجاهتها من كونها لغة ميتة أو أجنبية أن تدرس. وهكذا ينشأ الشباب على حب هذه "اللغة النحوية" كما يسميها دانتلي، وإذا تسنى لهم الكتابة فإن أقلامهم تصبح السجن الذي يفصلهم عن مواطنهم بقدر ما يفصلهم عن الموارد الغنية للغة الأم. وبعبارة أخرى، كما أن الفساد في ظل نظام الملك لا يمثل فعلاً محظوراً باعتباره فساداً، بل هو من الخصائص الطبيعية للنظام، وكما أن القمع يمثل بعداً أصيلاً من ذات النظام، كذلك فإن الكتابة تغدو رقابة كثيفة وغير معلنة تلغي كل فكر لدى الرعايا.

يشيع التفكير والقول بأن العربية هي اللغة الوحيدة ذاتها، إلا أن المسافة ما بين العربية الفصحى والعربية المصرية، وما بين عربية دول الخليج وشمال أفريقيا هي المسافة ذاتها ما بين اللاتينية واللغات الرومانية - الإيطالية والإسبانية والفرنسية. فشل الاعتراف بهذه الفوارق، أو بالأحرى رفض هذا الاعتراف، يساوي رفض السماح للأمين بكلام ملآن حول مستقبلهم. وانطلاقاً من وعبي الشخصي للآثار المدمرة "لسياسة الأسطورة" هذه، قررت أن أكتب ليس "بالعربية النحوية"، أي لغة النخبة، بل باللغة العامية، لأن سياسة الكتابة هذه مستمرة حتى اليوم، مع أن بالإمكان أن نعدّ على أصابع اليد الواحدة كبار الكتاب العرب الأحياء. ولو طلب الآن إلى أي مستبد حالي، سواء كان ملكاً، أو رئيساً، أو

خليفة أو شيخاً، نشر تعديلات الدستور الأميركي، فلن تكون هناك أي صعوبة في الحصول على موافقته. فمن ناحية أولى، قد يعتقد على الأرجح بسبب مزيج من الجهل والنفاق، بأنه "ليس هناك من جديد في هذا الأمر، فنحن لدينا كل ذلك عندنا" ! ومن ناحية ثانية، هو يعرف أن رعاياه لا يؤمنون بأي شيء من كل ذلك، ولو أنهم آمنوا به، فإن كلمات هذا التنقيح ستبقى عديمة الأثر، إذ ستراودهم الدهشة: "أي نوع من الرؤساء هذا الذي يقبل أن يكون موضع مساءلة ومحكمة من قبل رعاياه"<sup>١</sup>. إلا أن أي طلب إلى هذا الحاكم لترويج دراسة اللغة الأم في مدارسه، وكذلك دراسة بعض النصوص الرائعة، المكتوبة باللغة العامية من قبل كتاب من أمثال يرم التونسي، فؤاد حداد، صلاح جاهين والأبنودي، سوف يرفض بنحو قاطع<sup>٢</sup>. كذلك فإن القسم الأكبر من النخبة سيساطره هذا الرفض، وكذلك الشعب على الأغلب، انطلاقاً من الرضوخ لهذا الطابع المقدس. سوف يرفض المستبد هذا الأمر لأنه سيشرع، حتى ولو لم يعرف ذلك بوضوح، أن قبول هذا الطلب سوف يفتح الباب لاكتشاف قد يهدد سطوته، وهو اكتشاف يمكنه أن يحول المعرفة التي لدى الشعب عن حريته المفقودة وعن رضوخه، إلى حقيقة موضوعية ماثلة أمام عينيه، تحرّضه على الفعل بدلاً من الاكتفاء بالتكتيك المضحك.

لا أعتقد أن من الضروري تنبيه القارئ إلى أن هذه الحجج ليست مطروحة من وجهة نظر ماركسية، كما أمكن بعض الأصدقاء الإيحاء به. بل على العكس، يمكنني القول إنها تقوم على اعتبارات لا تأخذها الماركسية بالحسبان. لسنا هنا بصدد صراع الطبقات. فلقد وجد صراع الطبقات وسوف يوجد على الدوام، وسوف يسجل المصلحة الديمقراطية العمل على تلطيف حدته، بينما أراد الاتحاد السوفياتي القديم العمل على إغاثة. ولكننا نعالج في هذا المقام سؤالاً مختلفاً يتعلق بنزعتين من نزعات الفكر الإنساني، تتمثل الأولى في تفضيل الوحدة إلى حد التنكر للفوارق، وحين يدحض الواقع هذه الوحدة، لا يتبقى من إمكانية سوى الدعوة إلى موت "الخوارج". وتبقى الوحدة بالنتيجة مجرد رغبة، طموح

١ سمعنا أخيراً وزيراً يعظ بلا حياء، في معرض تبريره لمنع أعمال قصصية معتبرة لأخلاقية، أنه مسؤول عن تربية الشعب وعن الحفاظ على الأخلاق. ولا مجال لمزيد من القول بصدد هذا التأكيد السخيف، وكان من الطبيعي أن يقوم الوزراء بتربية الشعب والدفاع عن التقاليد. وإلا فمن غيرهم سيقوم بذلك؟!

٢ لسوء الحظ لم تتم ترجمة أعمال هؤلاء الكتاب. أنجزت السيدة هناء سام ترجمة ممتازة إلى الإنجليزية لجزء من أعمال صلاح جاهين، وخصوصاً قصيدته الكبرى بعنوان "عجبي"، إلا أنه حسب معرفتي، لم تنشر هذه الترجمة أبداً خارج مصر.

ليبيدي، ليس له نصيب من الواقع يزيد على نصيب الأغاني التافهة التي يحاول النظام تخدير الجمهور بها. ولو لم يكن هذا حقيقياً، لما شهدنا سلوك الحكومات العربية المخجل، ولا عجز الشعوب العربية في المأساة الفلسطينية: فضّل الرؤساء العرب كالعادة، الحفاظ على عروشهم، بينما فضّل رعاياهم بالنتيجة تجنب تفجّر عنف رؤسائهم. أما النزعة الثانية، فإنها تقبل بالفوارق وتحاول، من خلال التفاوض، الوصول إلى توافق لا يمكن أبداً للأكاذيب، حتى تلك المسلحة منها، أن تحققه.

يمكن تلخيص ذلك كله في قول مأثور من فلسفة الزن: ما دمنا صامتين فإننا نكون واحداً؛ فإذا تكلمنا أصبح اثنين. على كتابنا أن يختاروا.

## الفصل الأول

### عوامل السيطرة الغربية<sup>١</sup>

بدأت أوروبا توسعها الذي أدى إلى ثروتها وسيطرتها الحاليتين في القرن السادس عشر، وهو ذاته قرن إيتيان دي لا بويسيه. لم يكن هذا التوسع، كما كان يظن غالباً، عبوراً مفاجئاً من "ظلمات" القرون الوسطى إلى عصر الأنوار<sup>٢</sup>، بل كان نتيجة تحرك مشهود تطور ما بين القرنين العاشر والثاني عشر. جرى تحسين العديد من التطورات من مثل طحن الحبوب، نخل الطحين، عصر المواد، دبغ الجلود، بفضل استغلال أكثر للطاقة المتأتية من الماء والرياح وحركة المد والجزر. كذلك تطورت التقنية الحربية بدورها، لكن قد يكون الأهم كذلك هو التقدم الحاصل في استخراج المعادن (الفضة، القصدير والحديد) ما جعل ممكناً صناعة عربات قادرة على حفر التربة الأوروبية الرطبة والثقيلة عميقاً. حدث تقدم كبير في قطع الحجارة ما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر. استخرجت فرنسا من أرضها من الحجارة أكثر مما فعلته مصر القديمة خلال تاريخها الطويل، ويمكن استيعاب مدى

١ شكلت الكتابة الأولى لهذا الفصل مقدمة الترجمة التي قمت بها بالعربية الفصحى "لمقال في العبودية المختارة" لإيتيان دي لا بويسيه. نشرت هذه الترجمة في القاهرة في عام ١٩٩١. إلا أن تلك الطبعة حوت عدداً كبيراً من الأخطاء والسقطات بحيث أصبحت عملياً غير قابلة للقراءة. ولقد أسقط الناشر من ضمن أشياء أخرى قائمة المراجع. كذلك ظهرت طباعات أخرى في كل من القاهرة وبيروت والمغرب، إلا أنها لم تكن أبداً أفضل حالاً. لا تقوم العلاقات ما بين الناشرين والكتاب، في الجزء الأكبر من العالم العربي، على عقود مكتوبة. ويعود الفضل في هذا الفصل إلى العديد من الكتاب الذين لم أذكرهم في النص لأنني توجهت إلى جمهور لم يكن لديه مجال للوصول إلى مؤلفاتهم، إلا أنني لم أغفل ذكرهم في قائمة المراجع، وكذلك في قائمة المؤلفات التي يحسن الرجوع إليها في هذا العمل.

٢ ما زالت أهمية النهضة الأوروبية الأولى ما بين القرن العاشر والثالث عشر غير معروفة أو مفهومة بالقدر الكافي.



مقارنة كهذه إذا تذكرنا أن الهرم الأكبر تطلب ٢٥٠٠٠٠٠ متر مكعب من الحجارة. أتاحت تطورات الأشغال العمومية - من مثل حفر الأنفاق تحت الجبال وبناء القنوات والسدود والخزانات - ربط مراكز التجارة المهمة في البحر المتوسط بمراكز بحر الشمال، ما نتج منه تكاثر مهم للمعارض والأسواق التجارية. وتكثف استعمال المطارق الآلية ومضخات الهواء لرفع حرارة الأفران الصناعية، حتى إن لندن أصبحت أول مدينة تشكو من التلوث في أواخر سنة ١٢٨٠. وأدى توسع الأراضي المزروعة وتغيير طرق الزراعة إلى زيادة المحصول الزراعي، وخصوصاً القمح، وهكذا أصبحت الزراعة قطب اهتمام كبير بحيث كتبت فيها أدلة إرشادية، وبحيث حولت بعض الأديرة أراضيها إلى مزارع نموذجية، وطاولت هذه التطورات كذلك تربية الأبقار والأغنام. وتقدم فن الملاحة بفضل تطور البوصلة، وصارت السفن تعبر البحار بدلاً من السير في محاذة الشواطئ. أدى رسم خرائط أكثر دقة، وتبسيط جداول حساب المثلثات، وبناء أنماط جديدة من السفن القادرة على حمل بضائع أكثر وزناً وبسرعات أكبر، واختراع الدفات الموجهة للسفن والتي تتيح مسارات أكثر دقة، كل ذلك وسواه الكثير، جعل ممكناً الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، واكتشاف العالم الجديد. ولكن قد يكون الأهم في كل ذلك هو اختراع آلة أصبحت دقتها تعدّ نموذجاً لكل الآلات الأخرى، والتي جعلت في الإمكان حساب الطاقة أو فرض معايير إنتاج تسمح بحساب الأجور. غير اختراع الساعة العلاقات الاجتماعية، ليس فقط بين مختلف الطبقات، بل أيضاً ضمن الطبقات ذاتها. وعلى سبيل المثال، أمكن البنائين المعماريين أكثر من سواهم من العمال، التهديد بالإضراب، لأن أجورهم لا يمكن حسابها على أساس عدد القطع المنتجة بالساعة. أثرت الساعة على المجتمع بأكمله. أصبح الوقت جزءاً لا ينفصل عن العبادة، حين تعلن أجراس الصباح وصباح الديك بزوغ الفجر، وحين ترافق صلاة العصر غروب الشمس. ولم يكن في المستطاع الإحالة على الوقت من دون الإحالة على الإله وعلى الطبيعة. خلقت الساعات عصراً جديداً لم يعد الوقت فيه مرتبطاً بالحجارة أو بحركة النجوم، بل أصبح مقسماً إلى وحدات متساوية من دقائق الساعات المقامة في الحداثق العامة بأوامر من الدولة. وسواء أكانت مدينة مثل جنوا في عام ١٣٥٣، أم مملكة كفرنسا حيث تدق ساعة ضفة نهر السين التي مازالت تسمى حتى اليوم "ضفة الساعة" بانتظام منذ عام ١٣٧٠. وبعد رفض أولي، انتهى الأمر بالكنيسة الغربية

بقبول ساعات على أبراجها، بينما استمرت الكنيسة الشرقية بمعارضتها لذلك. وعلى كل حال، إذا انتهى الأمر بالكنيسة الغربية بقبول خضوع الزمن للمصالح البورجوازية أكثر من خضوعه للمطالبات الأزلية، فلقد كان ذلك نتيجة لظهور إنسان جديد في الغرب، إنسان الوقت بالنسبة إليه من ذهب.

في الواقع أدى تزايد الإنتاج إلى تزايد جمهور المستهلكين والعمال في آن واحد. وفوق ذلك، لم يؤدّ ظهور الإسلام إلى الانفصال ما بين الشرق والغرب، على عكس الرأي الشائع بهذا الصدد. مثلت المراكز الحضريّة المشرقية الكبرى، على العكس، مجالاً رحباً للاستهلاك لم يكن ممكناً من دونه أن تنهض التجارة الغربية. ليس هناك من مجال للشك في أن تجار البندقية وبقية المدن الإيطالية المتوسطة قد حققوا القسط الأكبر من ثروتهم من التجارة مع العالم اليوناني - الإسلامي من بزنطة إلى الإسكندرية. ولقد تبنّوا أساليب وطرائق أسلافهم من التجار البيزنطيين والعرب. وكان لهم فضل تنمية مدنها وإغنائها بحيث أصبحت دولاً مستقلة، على غرار البندقية. وأدخلوا، أو بالأحرى تبنّوا، تجدييدات ثورية في ميادين المحاسبة، وتبادل العملات، والتأمين، والتسليف وكل أشكال العقود. كان لديهم طموح جغرافي واقتصاد واسع المدى، واستثمروا مبالغ مالية طائلة، بحيث يمكن اعتبار ظهورهم بمثابة انبثاق طبقة اجتماعية جديدة. وهي طبقة تعيّن على الكنيسة والأرستقراطية أخذها بالاعتبار.

يتلخص جواب الكنيسة على رجال المال هؤلاء بالشعار الآتي: "لا يحصل التجار على البركة الإلهية - أو هم يحصلون عليها بصعوبة". ولكن بعد قرنين من توسع التجارة، وبعد خلق حرف جديدة في المدن التي وسعت مجال العمل في ما يتجاوز الزراعة، انتهى الأمر بالكنيسة إلى ضمّ التجار ضمن أعداد العمال الذين يقول لهم الإله في سفر التكوين: "ستكسب خبزك بعرق جبينك". إلا أنها استمرت بإدانة الزنى الذي يعتبر بمثابة بيع سلعة لا وجود لها، تبعاً لصيغة توماس الإكويني في القرن الثالث عشر. كانت المواعظ تحذر المرابين والصرافين من أن: المال الذي يأتي من الربا يوفر الحطب الذي سوف يحرقهم في جهنم. ولكن من يعطي الفقراء سوى الأغنياء؟ أو ليست الصدقات وسيلة لتبييض الأموال من قبل القداسة؟ أجزى للتجار تقديم هبات مالية للكنيسة، وفي المقام الأول للفرنسيسكان الذين تخلوا عن أي نوع من الثروة. لم يقتصر المال على المساعدة في بناء الكنائس، بل

ساعد كذلك في استخدام كبار فناني القرن كي يجعلوا من الكنائس تلك المعالم المكرسة لتمجيد الله، والتي نجدها في شوارع فلورنسا وسينا. أولاً يبيع الله الربح؟ أولاً يتضمن كل عمل قسماً من المخاطر التي تتوقف على الإرادة الإلهية؟ هكذا كان الفقه الديني لرجال أعمال توسكانا، مما عبر عنه سان برنار أحسن تعبير إذ اعتبر الأرباح المتأينة من الاستثمارات مشروعة، لأنها تسهم في حسن انتظام المجتمع المسيحي. وبالتالي، إذا كان صحيحاً أن الناس لا يحيون بالخبز وحده، إلا أنه يمثل قسماً أساسياً من نظامهم الغذائي. ولم ينسَ رجال أعمالنا، في سعيهم المشكور لإراحة ضمائرهم، تقديم المال للكنيسة التي كانت بأمس الحاجة إليه في معركتها ضد الأمراء. كذلك لم ينسوا شراء مكانهم في السماء من خلال تخصيص جزء من ميراثهم للقساوسة بغية تخصيصه لأعمالهم الخيرية.

وإذا كان من اليسير على رجال الأعمال هؤلاء إرضاء الكنيسة وإمكان إرضاء ضمائر بعض منهم، من خلال دفع عربون ليوم الحساب، فإن علاقتهم مع النبلاء كانت مزيجاً من التنافس والتحالف. أحدث هذا التباري تغييراً في المكانة في مدن من مثل فلورنسا، حيث انخرط العديد من أفراد الأرستقراطية في التجارة، نظراً إلى الأرباح الطائلة التي تحققها مقارنة بفقر مردود الاقتصاد الإقطاعي. وأما في ما خص التحالفات، فإن فيض قدوم النبالة الريفية إلى مدن من مثل جنوا أو البندقية يمثل أفضل شاهد على ذلك. ولقد ألف هؤلاء النبلاء مع التجار الأغنياء أرستقراطية جديدة، وهي وضعية يعبر عنها قول البندقية الماثور: "قضاة المدينة تجار، والتجار هم أمراء البحر". وحتى في المدن القديمة حيث كان التجار يؤلفون طبقة وسطى، تعتبرها الأرستقراطية بمثابة جزء من الشعب، بدأت علاقة أكثر انسجاماً تحل شيئاً فشيئاً محل الصراع القديم ما بين هذه الطبقة الجديدة وبين الأرستقراطية القديمة - وهو صراع ناجم عن الضرائب المفرطة التي كانت تفرضها الأرستقراطية على التجار في كل مرة كان يتعين عليهم عبور أراضيها وأنهارها.

يرجع السبب الرئيس لتغير العلاقات هذا ما بين التجار والأرستقراطيين إلى أن التجار كانوا يخشون الأرستقراطيين أقل من خشيتهم عمال المدن والحرفيين الذين يهدد تعاظمهم الطبقي الكامن هيمنتهم على التجارة الدولية، وبالتالي قوتهم السياسية. ولذلك، كان من السهل عليهم عبور الحدود التي تفصلهم عن الأرستقراطية من خلال عقود الزواج أو شراء أراضيها أو تقليد أسلوب حياتها. وهو ما حدث في الحواضر الجديدة التي أداروها، إلا

أن التجار لم يتمكنوا من الحصول على السلطة ذاتها في البلاد التي كان يحكمها ملك، من مثل فرنسا وإنجلترا. علمتهم تجربتهم، وكذلك تجربة الفلاحين، أن من يختار التمرد بالسلاح سوف يفنى بالسلاح. إلا أنهم لم يفتقروا إلى التأثير السياسي، حيث كان الملوك والأمراء يأخذون بنصائحهم في كل المشكلات الاقتصادية والمالية التي يمكن أن تؤدي إلى السلم أو الحرب. كان التجار، سواء في العواصم أو الأرياف، يأملون المشاركة في القرارات الحكومية، ليس لمجرد إسماع رأيهم، بل للاستماع إلى آراء ممثلي الملك، أو حتى الملك ذاته، من مصادرها الأولية. كان هذا الإسهام أكثر أهمية بالنسبة إليهم من تويّ شؤون الدولة، إلا أنهم لم يكونوا ليرفضوا شراء بعض الشؤون لأبنائهم أو أعضاء أسرهم، وخصوصاً وظيفة جامع الضرائب، وهي وظيفة ذات شأن في فرنسا. دفعت جدارة التجار والمعرفة السياسية الكبيرة التي كانت لديهم عن المشهد الدولي، الملك إلى اتخاذهم مستشارين له، وإلى تسميتهم بمثابة دبلوماسيين ووزراء مال، إلخ. والبرز في الأمر، كان لجوء الملوك والأمراء إلى البنوك لتمويل الحروب التي لا تنتهي. وبذلك حصل المقرضون على حقوق مهمة بمثابة ضمانات، من مثل نسبة مئوية معينة من الإنتاج المنجمي، كما حصلوا على تنازلات من مثل السيادة على الأراضي المحتلة في فلسطين وسوريا خلال الحملات الصليبية، إضافة إلى حصولهم على مكانة مدنية وعسكرية.

ألف التجار طبقة جديدة، بكل معنى الكلمة، تجسد وعيها بذاتها في المتجسديات Corporations التي أنشئت في مختلف البلدان والمدن، والتي تمثل أنشطتهم المختلفة (تجارة اللحوم أو الأنسجة، الاستيراد والتصدير، إلخ)، وتهدف إلى الدفاع عن مصالحهم. وعلى القطب الآخر من المجتمع، أنشئت متجسديات أخرى قائمة على أسس مهنية: إذ كان يتجمع حرفيو الصناعة ذاتها لتنظيم شروط عملهم، والتزود بالمواد الأولية، وبيع السلع، ووضع معايير الإنتاج. وحين كانت توضع هذه الأسس لإنشاء المتجسديات، كان على أعضائها احترام سلطتها. لا تشبه هذه المتجسديات المتشكلة في القرون الوسطى أياً من المؤسسات المعروفة في القانون الروماني، ولا يدري أحد على وجه الدقة كيف ولدت. وإذا صح قول مكيافيلي المأثور - بأن صراع الطبقات هو مفتاح التقدم الاجتماعي - يمكننا الجزم من دون مبالغة بأن بزوغ هذه المتجسديات كان أحد العوامل التي أتاحت التقدم في الغرب.

تمثل أحد الشروط اللازمة لحياة هذه الكيانات الجديدة في وجود المدن التي كانت تمارس نشاطها في كنفها. كانت هذه المدن إما مستقلة تماماً، من مثل البندقية أو جنوا، أو كانت تحظى بمميزات قانونية من مثل لندن وباريس، وهي شروط كانت مفقودة تماماً سواء في الصين أو في الشرق الأوسط. سميت هذه التجمعات الجديدة "متجسديات" (من اللاتينية Corpus أي الجسد)<sup>١</sup>، لأنها على غرار الجسد، كانت تتألف من مختلف الأعضاء الذين توحدتهم قوة غير منظورة حولتهم إلى كيان قانوني له حقوقه الخاصة به، والتزاماته، وحساباته وأختامه وأعلامه. وليس مما يدعو إلى الدهشة إذاً أن أولى فقهاء القانون والفلاسفة اهتماماً كبيراً بهذه المؤسسات التي تمثل موضع عناية الفلسفة السياسية، ومفهوم الدولة على وجه التحديد. ولكي نفهم أصالة الفلسفة السياسية لعصر النهضة، من الضروري استيعاب تأثير هذه المؤسسات الجديدة على الفكر السياسي.

كانت النظريات السياسية في القرون الوسطى مؤسسة على مفهوم "الكلية". كانت هذه النظريات تتصور الكون بمثابة كل، وكان ينظر في كل من كياناته، سواء أكانت جماعية من مثل فرقة عسكرية أو متجسدية، أم كانت فردية من مثل الإسكندر أو حصانه، بمثابة جزء من كل. كانت علاقة الجزء بالكل تدرك انطلاقاً من الأفكار الأرسطية في السببية، والتي تذهب إلى أن الحالة النهائية المنظمة للكون هي السبب الأقوى الفاعل في ما وراء مظهر الفوضى الراهنة. يعني مذهب الأسباب النهائية أن يتحدد كل جزء بالسبب الغائي لكل الجامع، بينما هذا الكل يتمتع بسببه الغائي الذاتي. كان التصور القروسطي للمجتمع يندرج من هذه المقدمات.

كان كل مجتمع إنساني جزءاً من كل يعود الفضل بوجوده إلى الله، وكل مجتمع أرضي كان عضواً في مملكة الله التي تشمل السماء والأرض في آن واحد. كان المبدأ الذي حكم جوهر الوجود وتكوينه هو الوحدة، لأن الله واحد وإرادته واحدة. وهنا كان يطرح السؤال: كيف يتأتى أن ينشطر المجتمع الإنساني إلى منظومتين، الزمنية والروحية؟ كل المنظرين القروسطيين في السياسة كانوا يقرون بوجود كيان أعلى تجسد فيه الوحدة، ولكن كيف ذلك؟

١ ليس هناك كلمة مكافئة في العربية، إلا أن من اليسير اشتقاق كلمة مع مصطلح "الجسد" هناك ترجمة لكلمة "نقابة" التي تحمل محل "المتجسدية".

من الواضح أننا نعالج هنا ما تطرحه الفلسفة السياسية باعتباره مسألة السيادة، أي سيادة سلطة تعلو على كل السلطات الأخرى. فإذا كانت هذه السلطة مزدوجة، عندها تكون الحكومة منقسمة، ما يطرح شبح الحرب الأهلية. وعلى كل حال، فما كان يطرح بمثابة صراع ما بين السلطات الزمنية والروحية كان في الواقع صراعاً دائماً بين سلطتين، كانت كل منهما تعتبر ذاتها زمنية وروحية في الآن عينه. بالنسبة إلى السلطة الروحية الممثلة في الكنيسة، كان الدين هو الحكومة، وأما بالنسبة إلى السلطة الزمنية، المتجسدة في الدولة، فلقد كان الدين يمثل سند الحكومة. كانت تمثل عقيدة الكنيسة في أنه إذا كان هناك إمكان لقيام دولة على الأرض، فإنه يتعين عليها أن تشمل كل الإنسانية مجسدة بذلك الكنيسة التي أقامها الإله ذاته. ولم يكن ذلك يعني أن الكنيسة ترفض مبدأ فصل السلطتين، بل كانت تعتبر هذا الفصل بمثابة التعبير عن قانون الرب الذي يحرم على من يمثلون المسيح حمل السيف. أعطى الرب لبولس سيفين، الروحي والزمني، انتقلاً بواسطته إلى البابا: احتفظ البابا بالأول (السيف الروحي) وأعطى الثاني (السيف الزمني). إلا أن إعطاء الثاني يعني بالأحرى ولاية إقطاعية تسمح لمن يتلقاها أن يستعملها، ولا يعدو الإمبراطور كونه سيف البابا الأول، وما القسم الذي يجهر به أمام البابا خلال تنويجه سوى المثل الأكمل للتعهد الذي يقدمه الفارس في خدمة سيده. إلا أنه يعود للبابا - بل بالأحرى من واجبه - أن يسحب السلطة من ذاك الذي يظهر انعدام كفاءته أو فساد، وتسليمها إلى آخر أكثر جدارة.

أما أولئك الذين عارضوا هذه العقيدة، فقد صادفوا صعوبة في استخلاص سيادة السلطة الزمنية من مبدأ وحدة الله، مع أن ذكرى زمن ما بعد قسطنطين، حيث كانت الكنيسة خاضعة للإمبراطور، ما زالت حية. إلا أن بعض الفلاسفة، من أمثال جيليوم دي أوكام ومارسيل دي بادوا، تجرأوا على الشك في ضرورة قيام دولة تضم كل البشرية ويقودها رئيس واحد. قالوا إنه إذا تحققت دولة كهذه، فستستوعب الكنيسة ذاتها. لا يمكن لمبدأ الوحدة الحقيقي على الأرض إلا أن يكون تشكيل نظامين مستقلين. وهكذا انقسم الفلاسفة القروسطيون ما بين أنصار سيادة السلطة الروحية وخصومها. إلا أن الجميع تبَنوا الفكرة القائلة بأن المجتمع الإنساني هو عبارة عن جسد يجد تمامه في رأسه السماوي. ومع أن هذه الفكرة توضح أهمية صورة الجسد في الفكر الإنساني، إلا أنه كان لها عواقب ذات شأن.

ولقد انطبقت الفكرة العامة القائلة بمجتمع إنساني باعتباره كلاً متكاملاً على كل مجتمع خاص: هو جسد سياسي دائم في مقابله جسد فان، وهو جسد غير مرئي في مقابل آخر مرئي. ومن هنا تأتي فكرة واجب التضحية بالجزء، باعتباره عضواً، في حالة الصراع ما بين مصلحته ومصلحة الكل، مع أن تضحية كهذه كانت تمثل بالنسبة إلى العضو ضرراً كان يجب عليه تجنبه بقدر إمكانه. وانطلاقاً من مفهوم العضو هذا الذي يتضمن في الآن عينه أجزاءً متماثلة ومتباينة، تنتقل إلى مفهوم الفوارق في المكانة والموقع والوظيفة. وانطلاقاً من ذلك، أصبح ينظر إلى المجتمع باعتباره مكوناً من أفراد لا يمثلون عناصر متساوية، بل هو مكون من أعضاء طبقات متميزة ومتفاوتة. كذلك فمع الفوارق في الوظائف وخضوعها لمحرك أول يطلق النشاط ويديره، أصبح يطرح السؤال حول معرفة هل الإمبراطور أو البابا هو من يَشغَل هذه الوظيفة. بالنسبة إلى العديد من الكتاب، مثل مجاز الجسد أغلوطه، لأنه أياً كانت أوجه الشبه ما بين الجسم السياسي والجسم الطبيعي فإن ذلك لا يلغي الفوارق بينهما. من بين هؤلاء الكتاب وأهمهم كان مارسيل دو بادوا الذي أكد أنه على الرغم من أن الرب قد خلق الكنيسة مباشرة - وهي عقيدة لم يخطر ببال أي شخص نكرانها - أعطى الناس حرية خلق الدولة على غرار نموذج التنظيم الذي تقدمه الطبيعة. إلا أنه لم يكن بإمكان هذا الحديث الذي لم يبق من دون صدى (ضمن حدود المفاهيم والقضايا العقلية الموجهة له والتي ما زالت سائدة إلى الآن في مصر) أن يؤدي إلى استنتاج مُرضٍ، حيث يفتقر إلى إطار قانوني. تمثل الأمر الأكثر أهمية في الاستعمال الذي لجأ إليه الفلاسفة للتفاعل ما بين نموذج المتجسدية الجديد والقانون الروماني.

إذا أقررنا بأن الله هو سيد الكون الوحيد وأنه مصدر كل سلطة، يتعين عندها أن نستنتج أن كل سلطة على الأرض، سواء أكانت روحية أم زمنية، تمثل نموذجاً مصغراً للسلطة الإلهية. كان ذلك هو الاعتقاد المشترك في القرون الوسطى. إلا أن هذا الاعتقاد لم يكن أبداً في منأى عن الجدل، وذلك بسبب المعرفة التي كانت لدى الكتاب عن الكتابات الكلاسيكية لما قبل الميلاد (التراث اليوناني). كان بالإمكان وضع التأكيد القائل بأن الملكية هي أفضل من كل الأنظمة السياسية الأخرى موضع التساؤل، بفضل المقارنة التي أجراها أرسطو ما بين مختلف الأنظمة والدساتير السياسية. صحيح أن الحجج الدينية والمفهوم الجرماني عن السيد، مع فرقة فرسانه وسلطته غير المنازعة على أراضيه وعلى أقدانه، كانت

تنزع إلى رفع شأن الملك باعتباره فوق المجتمع الذي يحكمه تماماً كما كان الله فوق الكون الذي خلقه. وهكذا اكتسب الملك مكانة إلهية من نوع ما، باعتباره يمثل الله على الأرض. إلا أن إعلاء شأن شخص الملك هذا تلازم دوماً، طوال القرون الوسطى، مع الفكرة الأخرى القائلة بأن العلاقة ما بين الملك ورعاياه تتضمن حقوقاً وواجبات متبادلة ما بين الطرفين اللذين تولف وحدثهما العضوية الكيان الكلي. لم تكن السلطة الملكية أبداً حقاً مطلقاً، بل كانت تبدأ بواجب، خاصيته الإلهية كانت تجعله فقط أكثر تقييداً بحيث تصبح التزاماً: الملوك هم للشعب وليس الشعب للملوك. يتلخص كل ذلك في السيادة باعتبارها تعود إلى مسؤوليات الملك وليس إلى شخصه، بحيث يجري التمييز الواضح ما بين المسؤوليات وبين الشخص. وهكذا أصبحت الأرض مهددة كي تفرض فكرة سيادة الشعب انطلاقاً من تلاقي نظرية القانون الروماني وظهور المتجسديات القروسطية الجديدة.

كانت إحدى تعاليم الكنيسة تقول إنه قبل الخطيئة عرفت الإنسانية زمناً من الفرح، حيث عاشت الشعوب تبعاً لقوانين الله والطبيعة، متمتعة بالثروات والحرية والمساواة. كان الغرض من هذه العقيدة تدعيم مكانة الكنيسة. إلا أن خصومها كانوا يرون في هذه العقيدة البرهان على أن وظيفة الملوك كانت نتاج قرار يتخذه الشعب بعد وقوع الخطيئة: أي رضوخ تعاقدي مطابق للالتزام الذي تمت الإشارة إليه أعلاه. ولم يكن الأمر يتعلق برفض المصدر الإلهي، ولا بشرعية الملكية. ففي النهاية لم يكن الشعب سوى أداة في يد الله، فإرادته هي التي تملئ اختيار الملوك. يستند هذا الرأي إلى اقتباس من مبادئ قانون جوستينيان يقول: "يتمتع أي إعلان من قبل الإمبراطور - معزل عن مراسيم مجلس الشيوخ - بقوة تشريعية، لأن الشعب يحضه، من خلال أفعاله الملكية المرتبطة بسلطته وسيادته، هذه السيادة والسلطة".<sup>١</sup>

ويصبح السؤال كالاتي: هل كان هذا الخضوع الطوعي فعلاً لا عودة عنه يجرد الشعب من كل سلطة، أم أن الشعب كان يحتفظ بجوهر السلطة السياسية (الحاكمية النهائية)؟

<sup>١</sup> Justenien, Institutes, trad et inter. Par peter Briks et Grant Mcleod et texte Latin de paul Krenger Londres, Durkworth, 1977, p39.

معجم مصطلحات الفلسفة السياسية فقير في اللغة العربية، على النقيض من غناه في مجالات أخرى. من الصعب إنجاز ترجمة دقيقة لتعابير مثل Autorité et Souveraineté أما استعمال كلمات موجودة في العربية من مثل السيادة أو السلطة فإنها تلغي خصوصية هذه التعابير. قد تسهم ترجمة تحظى بالناية الكافية لكتاب Institutes لجوستينيان جلياً في علاج هذه الحالة.



وضع مارسيل دو بادوا نظرية تنطبق على كل أنظمة الحكم: منذ كان الحاكم جزءاً من كل، وأن الجزء لا يفضل الكل، حتى لو كان الجزء الرئيسي، وأن الخضوع الاختياري هو فعل تشريعي، يبقى الشعب إذاً المشرع الأول ويتقيد الحاكم بالقانون في أفعاله التشريعية بمقدار ما لا يعدو كونه الأداة التي من خلالها تدير المجموعة أو المتجسدية الأعمال. ولقد أضاف نقولاس دو كيوس أن التشريع والإدارة كانا يقومان على انتخاب يعبر عن إرادة الكل، وكان الحاكم يصبح بموجبه شخصاً عاماً، وخصوصاً إن لم يكن بإمكانه أن يقدم نفسه بمثابة أب في علاقته بالأفراد من دون الاعتراف بدينه تجاه الكل.

إضافة إلى هذه التمييزات التي أثرناها ما بين الشخص والمهمة الرسمية، كانت هذه النظريات تتضمن مفهوماً عن "الواحد"، سواء بصدد الإمبراطور أو البابا، يضعه في نفس مستوى أي مدير لمتجسدية. وهكذا تدين القرون الوسطى للمتجسديات بفكرة الدولة المتمتعة بمؤسسات برلمانية وتمثيلية: فالإمبراطور ليس هو الإمبراطورية، إلا أن وظيفته تمثل في آن واحد الإمبراطورية بمثابة الكل والمواطنون بمثابة الأجزاء. ويمكن أن ينطبق التفكير ذاته على فكرة حق الشعب. فهو لا يحيل على الحق الشخصي للأفراد بل على الحق العام الذي تتمتع به المجالس المشكلة شرعياً تبعاً للمبدأ الحاكم للمتجسديات، والقاتل بأن الأغلبية تمثل الكل. وبكلمة أدق، المجلس التمثيلي يتصرف باسم من يمثلهم، بحيث تكتسب قراراته القوة التشريعية التي يتمتع بها مجلس يضم كل المواطنين، إذا كان هناك من إمكان لوجود مثل هذا المجلس. يمارس هؤلاء الممثلون أو النواب سلطتهم بصفتهم الفردية، إلا أن مجالسهم لها حقوق وعليها واجبات، ليس بالصفة الفردية لأعضائها بل بمثابة "شخص معنوي" أو كيان قانوني. وكما أن الكنيسة لا يمكنها إلغاء المتجسديات لأن المتجسدية هي "شخص معنوي" تتمتع بالاستمرارية خلال الأجيال، إضافة إلى أن قرار إلغاء كهذا سوف يحس أجيالاً بريئة، كذلك فإن قرارات الملك تلزم من يعقبونه، لأن الذات الحقيقية للحق والواجبات ليست الملك، بما هو كيان جسدي، بل الدولة باعتبارها "شخصاً معنوياً".

خلاصة القول، انطلاقاً من المفاهيم والمسلمات التي تعين أن تؤمن توحيداً مطلقاً للسلطة الروحية منها كما الزمنية، انتهى المطاف بالفكر السياسي القروسطي إلى القول بثنائية، لا علاقة لها من قريب ولا من بعيد بالغاوية والأسباب النهائية. كان يعبر بهذه الأشكال المختلفة: ما بين جسد الملك الفاني وبين وظيفة الملك ذات الطابع الدائم، وما

بين الواحد الذي يحكم وبين رعاياه، ما بين الشعب وبين مجالسه التمثيلية، وفي نهاية المطاف ما بين الأفراد الذين يكونون الجماعة وبين الذات الحقيقية للحقوق والواجبات التي تعود إلى "شخص معنوي" هو الدولة. ولا يعني ذلك تخلي المفكرين القروسطيين عما كان له بالنسبة إليهم قيمة المقدمات، أي "مفهومهم العمودي" للجسد السياسي الذي يمثل الإله رأسه. بقي هذا التصور مثالياً بنحو جلي، لا ينفصل عن كلام الله أو عن تأويله المتوافق عليه. وهكذا يمكننا أن نتخيل الصدمة التي أحدثها مكيافيللي حين أوصى بأسلوبه الصارخ المميز له، بالدراسة العملية للنظم السياسية القائمة، وبدراسة طبيعة الشعوب، بدلاً من صياغة أنظمة طوباوية لا واقعية. لكن يتعين علينا، قبل الحديث عن مكيافيللي وعن عصر النهضة، أن نتوقف لبحث أحد العوامل الرئيسية التي أتت بعصر النهضة: أي إنشاء الجامعات في القرون الوسطى.

إلى جانب طبقة التجار الجديدة الناجمة عن نمو وسائل الإنتاج ما بين القرنين العاشر والثالث عشر، ظهرت طبقة جديدة تمثل عملها في القراءة، والترجمة، والدراسة والتعليم، والتي شكلت ما يمكن أن نسميه حالياً "الأنتلجنسيا" مع أن أفرادها أعطوا أنفسهم لقب "الفلاسفة".

يعود ظهورها إلى اللقاء ما بين الغرب وعلماء بيزنطة والعلم في المشرق. كان هذا اللقاء في الآن عينه حريياً رافق الحملات الصليبية، وتجارياً بسبب التجارة الكبرى للمدن الإيطالية، ما جعل ممكناً اكتشاف الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية. أراد هؤلاء المثقفون الذين فضلوا قراءة فرجيل وسانت أوغسطين على قراءة سفر الجامعة (أحد أسفار العهد القديم)، قبل كل شيء، دراسة الأقدمين الذين يعتبرون أنفسهم ورثتهم عبر برنار دي شارتر، الذي أدار مدرسة شارتر في القرن الثاني عشر، وعبروا أفضل تعبير عن موقفهم: "نحن، بمثابة أقرام على أكتاف العمالقة، وبالتالي يمكننا أن نرى أفضل وأبعد منهم، ليس بسبب حدة بصر أكبر لدينا أو بسبب كفاءة فيزيقية خاصة، وإنما ببساطة لأننا نتمتع بموقع أعلى بفضل قامتهم العملاقة". وصفوا أنفسهم بـ "المحدثين"، إذ كانوا يرددون على أثر برنار دي شارتر أن "الحقيقة هي بنت الزمن". وبغية قياس جدّة أقوالهم، تكفي الإشارة إلى نزعة الذهن البشري إلى إسباغ الحقيقة على ما هو قديم.

لم يتجنب بعض هؤلاء المثقفين انتقاد البابا على تحالفاته الموقعة مع الأثرياء الجدد. لقد

اتهموه بتحويل اسم المسيح إلى نقود، بالإشارة إلى كلمات غريغوار السابع: "لا يقول المسيح أن "اسمي هو العرف" وإنما هو يقول "اسمي هو الحقيقة". على أننا لو اقتصرنا على النزعات التي كان لها تأثير دائم، وعلى حالة مدرسة شارتر كمثل عن المراكز العلمية في القرن الثاني عشر، فسوف نلاحظ أنه رغم عدم إهمال دراسة "الثلاثية" Trivium - أي النحو والبلاغة والمنطق - إلا أن تفضيلهم ذهب إلى الرابع Quadrivium - أي الحساب، الهندسة المعمارية، الموسيقى، والفلك، بدلاً من دراسة الأصوات.

هذه النزعة التي اغتنمت بتأثير العرب واليونان، والمتصفة بحس الفضول والملاحظة والبحث، لخصها هونوريوس دي أوتان، أحد أشهر وجوه هذا التيار، بهذه العبارة: "منفى المرء هو الجهل، وبيته هو العلم". لم يكن بإمكان هذا النمط من المثقفين أن ينمو إلا في المدن.

وهكذا اتهم التقليديون كلاً من المثقفين والمدن. في المدينة، بدأ المثقفون يعتبرون أنفسهم ممارسين لمهنة لم تكن تختلف عن مهن المواطنين الآخرين. تمثلت مهنتهم في دراسة وتعليم "الفنون الليبرالية". ولو أننا سألناهم ما هو الفن لأجابوا: "إنه تقنية". الفن هو كل نشاط ذهني ذووب يمكن أن ينخرط فيه الدماغ بهدف إنتاج أدوات مادية وثقافية. يجب عدم تخزين العلم والاحتفاظ به، بل يجب نشره وترويجه: المدارس هي معامل تنتج الأفكار. كان القرن الثالث عشر الذي ولدت خلاله الجامعات هو أيضاً قرن المتجسديات. ففي كل مرة يكبر فيها عدد أعضاء مهنة معينة في المدينة، فإنها تنتظم في كيان يحافظ على مصالحها أو يؤسس احتكاراً لممارستها. بنيت الجامعات من خلال العديد من التبادلات: ما بين الأساتذة والطلاب، وبينهم وبين بقية المواطنين، وما بين الأساتذة والطلاب والسلطات الدينية والزمنية. وحيث أصبحت الجامعات بسبب تزايد أعدادها قوة مهمة، كان المحتم نشوب صراع لحقت فيه التشريعات الأحداث، كما هو معتاد. يعود الفضل في انتصار الجامعات إلى تضامنها وصمودها. من المعروف أن جامعة باريس، على سبيل المثال، حققت استقلالها إثر حوادث دامية في عام ١٢٢٩، قتل خلالها العديد من الطلاب. أعلن معظم أعضائها الإضراب وانسحبوا إلى أورليان. وأما في ما يتعلق بالأنشطة العلمية والفكرية، فلقد بلغت مستوى متقدماً بحيث لم تعد الكتب مسألة ترف بل أداة تعليم، وبفضل الجامعات ولد الكتاب في القرن الثالث عشر،

أي قبل قرنين من ولادته الثانية خلال عصر النهضة.

مع إطلالة القرن الرابع عشر ابتدأت الحروب وسنوات المآسي التي استمرت أكثر من قرن: أوبئة، ركود اقتصادي، تناقص عدد السكان بسبب المجاعة والأوبئة، تدمير الموارد في صراعات لا تنتهي، من مثل حرب المئة عام وحرب الورود. فضل غالبية سادة الإقطاع جباية مداخيل أراضيهم نقداً وليس من خلال الواردات العينية. تزايدت الهوة ما بين الضحايا والمستفيدين، وخصوصاً في المدن، حيث وجد معظم الحرفيين أنفسهم عاطلين من العمل والتحقوا بجماهير الفلاحين. وزاد أعضاء البورجوازية الغنية ثرواتهم من خلال استغلال الفقراء وشراء الأراضي، ما أتاح لهم عقد تحالفات مع الطبقتين الآخرين اللتين تسيطران منذ زمن طويل. تمكنت هذه الطبقات الثلاث من تعزيز وضعيتها بفضل السلطات السياسية التي تمثل هدفها الأساسي، حتى قيام الثورة الفرنسية، في حماية ما كان يسمى "النظام القديم". كان ذلك هو أيضاً القرن الذي شهد ظهور الدول والأوطان بعد تراجع الحروب بين الأمراء. أدرك الأغنياء أن هذا الزمن هو زمن الأمراء، ولذلك تدافعوا لخدمتهم والانضمام إلى حاشيتهم للحصول على الثروة والسلطة والمجد. اختفى مثقف القرون الوسطى في هذا السياق، وسيحل محله إنسان جديد، صاحب المذهب الإنساني (الاهتمام بالآداب القديمة وقضايا الإنسان).

لم تنتظر السلطات الجامعية طويلاً قبل تجميد منح الطلاب، على الرغم من التزايد المستمر لكلفة الحياة. ولم تحرم هذه السلطات ذاتها من زيادة أسعار الخدمات: السكن، الغذاء، الكتب والأدوات العلمية، ورسوم الامتحانات والشهادات إلخ. ولذلك انسحب أفضل الطلاب الذين كانوا يأتون إلى الجامعة بحثاً عن المعرفة، وليس عن منصب أو وظيفة. كان العديد من المناصب الجامعية مكرساً للأغنياء، بحيث أصبح بالإمكان إنشاء كليات ترتادها النخبة فقط. أصبحت الجامعات مؤسسات أرستقراطية: حيث كان صاحب المذهب الإنساني أرستقراطياً. إلى ذلك تحول تطور الجامعات - بما هي مؤسسات - لكن ماذا كانت آثاره على البرامج؟

غير أصحاب المذهب الإنساني من القرن الخامس عشر برنامج التربية القروسطية. استلهموا المثل الأعلى للخطيب المتكلم الذي وجدوه لدى شيشرون، أي الإنسان الذي يتحقق فيه الكمال بفضل التمكن في مجالات مختلفة، مجال العدالة، مجال الحقوق والواجبات،

الديساتير، طرق الحكم، وباختصار كل حقل الفلسفة التطبيقية. وليس من المبالغة القول بأن هدف عصر النهضة تمثل في إعادة إحياء هذا النمط الشيشروني. وكان من نتيجة ذلك التركيز على الدراسات الفلسفية، أي دراسة النصوص الخالدة التي اتخذت بمثابة نماذج وقوانين منزلة. وكما أن روما اتخذت، في القرون الأولى، من النصوص اليونانية نماذج لها، كذلك فإن المذهب الإنساني في عصر النهضة وجد نماذجه في أكبر النصوص اللاتينية، ومن ثم في النصوص اليونانية - بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك في عام ١٤٥٣ - وقدم العلماء البيزنطيين إلى أوروبا. ظهر هذا التباين ما بين "رجال الأدب" و"التقنيين"، والذي لم يكن له وجود في القرون الوسطى، في عصر النهضة. يعود الفضل إلى البحانة أصحاب المذهب الإنساني، ليس فقط في إعادة إحياء اللغات القديمة، مع كل ما تتضمنه هذه العودة - من اكتشاف دقائقها ولطائفها، إلى تنظيم نحوها، وإعادة التفكير في تعليم النحو والأدب والبلاغة - بل يعود إليهم الفضل أيضاً في تطوير الطرائق التي استعملوها لنشر المخطوطات القديمة، وأرشفتها وتاريخها، ولكن الأهم من ذلك دراسة سياقاتها التاريخية. وبغية تقدير تأثير هذه الطرائق، يكفي التذكر أن الإصلاح مدين بحيويته إلى المقارنة ما بين الترجمة اللاتينية للأناجيل المعروفة من قبل الكنيسة وبين النص اليوناني الأصلي، المنشور لأول مرة من قبل إيرازموس في عام ١٥٠٥. كانت هذه الطرائق في الحقيقة هي التي فتحت الطريق أمام الجراءة التي لا مثيل لها للفكر الأوروبي الذي وضع موضع التساؤل التماهي المسبق ما بين الحقيقة والنص، والذي أتى لاحقاً بحركة الأنوار، التي لولاها لما كانت الديمقراطية قد رأت أبداً النور من جديد في الولايات المتحدة وأوروبا<sup>١</sup>.

١ دافع جونانان إسرائيل بنحو مقنع في كتابه بعنوان في عصر الأنوار الجندري - الفلسفة وصناعة الحداثة - ١٦٥٠. ١٧٥٠، المنشور عام ٢٠٠١ في دار أكسفورد برس، عن وجهة نظره القائلة إن أنوار كل من فولتير وديدرو وروسو قد سبقها "عصر أنوار جذري" حيث أدى سينتوزادوراً مركزياً. وإذا عماشينا مع هذه الفكرة، يمكننا القول إن كل شيء قد ابتدأ مع إيرازموس.

## الفصل الثاني

### الأسئلة المنسية في فلسفتنا السياسية<sup>١</sup>

أحسب أن جمهرة الكتاب المصريين سيتفقون مع الدكتور فؤاد زكريا في تنديده بموقف بلادنا الحالي، كواحد من مواقف التخلف الثقافي غير المسبوقة<sup>٢</sup>. هناك سببان لهذا التخلف، أولهما الكارثة التي حلت بجميع صعد التعليم منذ الحقبة الناصرية، وبخاصة في الجامعات. لقد كان ذلك مجرد جزء من تلك العملية المستمرة التي احتكرت فيها الدولة الحياة الثقافية، وأسست لهيمنة قاتلة من خلال تأميم كل من الصحافة ونشر الكتب معاً، حيث كانت التأميمات مصحوبة بإطلاق مشروعات ثقافية حبلى بالمرض، ولذا فقد ولدت ميتة. فقد كان هناك، على سبيل المثال، مشروع لترجمة "الألف كتاب". وكان اختيار الكتب يجري من قبل لجنة "رفيعة المستوى"، إلا أن جل اختياراتها وقع عملياً على كتب مدرسية، كما لم يكن لترجمتها من اهتمام شخصي في أداء مهمتهم سوى الأجر الذي سيدفع لهم، بدلاً من قيامهم بعملهم على الوجه الأكمل. أما السبب الثاني الذي لا يقل أهمية عن سابقه، فقد اتصل بخشية السادات من مواجهة اليسار (وخاصة الشيوعيين) لعرضه "السلام مع إسرائيل". وهو ما أعاد الحياة إلى تلك الحركات الإسلامية التي كانت مقموعة بشدة تحت حكم ناصر، كما فتح الأبواب على مصاريحها

١ نشرت المسودة الأولى لهذا الفصل في مجلة إبداع القاهرة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

٢ الدكتور فؤاد زكريا كان أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس، ورأس تحرير مجلة الفكر المعاصر في ستينيات القرن الماضي. وقد غادر بعدها مصر إلى الكويت ليرأس قسم الفلسفة بجامعة الكويت حيث أشرف على بعض إصداراتها الثقافية. وعاد بعدها إلى مصر ليرأس لجنة الفلسفة في المجلس الأعلى للثقافة حتى وفاته.

”للبترودولار السعودي“. وكان من نتيجة ذلك أن انتشرت على أرصفة القاهرة وسواها من المدن أكوام من الكتب من قبيل ”كيف تعالج بالقرآن من تلبسه الجان“، و”عذابات القبر“، و”مفاتيح الغيب“، و”تسخير الشياطين“. وكلها كتب لغلاة الرجعيين من المفكرين الإسلاميين، بيعت بأسعار لا يمكن مجاراتها. يبدو هذا التخلف الثقافي جلياً للعيان في فقر فلسفتنا السياسية، هذا إن كنا نملك حقاً فلسفة كهذه. كان جلّ ما لدينا لا يعدو بعض تأكيدات لا نخلّ من تكرارها، آملين تحويلها إلى حقائق قاطعة. فلم نعد نحلم حتى بمراجعة أنفسنا أو مراجعة تلك ”الفلسفة“، رغم شبهها الجوهري بالفلسفة التي سادت أوروبا إبان العصور الوسطى، والتي ظلت تدرس وتنتقد طوال خمسمئة عام. مثال ذلك ما نقع به أنفسنا بتأكيد وحدة المجتمع المبنية على أساس من التاريخ واللغة والدين، بينما نخفق في الاعتراف بانقساماته التي ترجع إلى تضارب المصالح التي لا تحصى، وليس أقلها ”استغلال الإنسان لأخيه الإنسان“. وهناك مثال آخر يتصل هذه المرة بتشبيه هذه الوحدة بالجمسم الإنساني الذي رأسه في السماء (وما السماء عند المؤمن غير الكتاب السماوي)، وقدماه على الأرض (متمثلة في الفلاحين). وفضلاً عن ذلك، وحتى لو توافر قدر من الحرية العقلية الذاتية في ظل إعطاء سلطة مطلقة لكيان متعال نكون جميعاً متساوين أمامه، فإن هذا القدر من الحرية العقلية سينتهي - والحال هذه - إلى عبودية حقيقية تتمثل في أسلوب حكم يخضع الجميع فيه للسلطان الحاكم، الذي تختصر معايير شرعيته وحدود سلطاته في سرد بعض خصائص مثالية من قبيل الحكمة والفضيلة، والالتزام بالشورى، وهلم جراً، ومن دون إقامة أي نظام للرقابة والمحاسبة.

وسيزداد التدهور الثقافي سوءاً يوماً بعد يوم، بسبب نوع جديد من الاستعمار، حيث تدمر العولمة الخصائص النوعية التي تستمدّها كل حضارة من إنتاجها الخاص الذي يمكنها من التعرف إلى ذاتها من خلاله. لقد آلت الحرف التقليدية إلى زوال، كما تغيّرت طرق الحياة التقليدية، من مأكّل وملبس ومسكن، ولم تعد إلى سابق عهدها. ومع وسائل الاتصال والإعلام (الميديا)، فإن العبادة ذاتها بدأت تصبح نوعاً من الفرجة، حيث تحول الدين من خلال التلفزيون ومكبرات الصوت إلى حدث إلكتروني. إن لهذه الظاهرة جذوراً عميقة في الثقافة الصناعية، كان تجليها الأول في أوروبا. فقد لاحظ هيغل في أوائل القرن التاسع عشر أن القضاء على خصوصيات الأمة قد يحرمها من كل معاني الشعور بوجودها الذاتي،

حتى لو تمسكت بالتأكيد الفارغ على هويتها من خلال اللغة والتاريخ، وكذلك من خلال التكليف والنواهي التي عليها عليها دينها.

لقد أشار الدكتور فؤاد زكريا إلى أنه في مثل هذه الشروط لا يمكن إدراك المستقبل إلا بمثابة عودة إلى الماضي المجيد في الحاضر، والذي هو بمثابة ضياع محقق لأي منظور مستقبلي. ذلك أن الحاضر إذا ما جرى اختزاله في تمجيد الماضي فإننا، والحال هذه، قد نفلح في مداواة جروحنا، أو التقاط بعض أفكار تأتينا من فلسفة الغرب السياسية، من دون أن نخضعها لما خضعت له من تمحيص جاد. وبذلك نمسي مشطوريين بين منحيين متناقضين. هناك من ناحية منحى يتوجه إلى الماضي إذا جاز القول، فلا يرى أنصاره غير العمل لإعادة تكوين مجتمع الصحابة الذي سيعيد فتوحات الإسلام. لقد نسوا - على سبيل المثال - أن مصر قد تكون الدولة الوحيدة في العالم التي لا تتطابق حدودها العسكرية مع حدودها السياسية<sup>١</sup>، لذا الأجدر بهم والحالة هذه إيجاد وسائل ذكية لتسوية هذه الوضعية بدلاً من الحلم بفتوحات لا معنى لها. لقد نسوا أيضاً التساؤل عن معنى الدعوة إلى الطاعة المطلقة لأوامر الخالق، عندما تخدم مثل هذه الطاعة صراحة تعزيز أوامر الحاكم. كذلك فإنهم لم يتورعوا عن تكفير كل من لا ينضوي تحت لوائهم، مع تجاهلهم أن هذه الإدانة تتخطى حدود العدالة الإنسانية، حيث إن الله وحده - بإقرارهم هم أنفسهم - هو الحكم الفصل في ما انطوت عليه القلوب والنيات. أما في ما يتصل بعلماننا التقليديين - ودعونا لا ننسى أن من يعينهم هو رئيس الدولة - فليس لديهم ما يشغل تفكيرهم سوى الحدود والنواهي، والفضائل والردائل، والحلال والحرام.

يذكرنا الوسواس بهذه القواعد، وسواس أولئك المسيحيين الأوائل الذين كان شغلهم الشاغل هو معرفة ما إذا كان أكل لحوم الأضاحي التي تقدم بمثابة قربان للأصنام<sup>٢</sup> حراماً أم حلالاً؟ وأحسب أن من حق المرء أن يسأل عما إذا كان مثل هذا التفكير يفتني مرضاة الله أم أنه يرضي وساوس أصحابه؟ إن هناك العديد من الأسئلة التي تصيب كبد الوقائع، وكان يمكن أن تهديهم سبيلهم، من قبيل: هل تستنفذ الأوامر والنواهي الإرادة الإلهية، بحيث تمثل إطاعتها ضمناً لمرضاته، أم أن مرضاته إنما هي تعبير عن إرادته الحرة التي لا يُستَر

١ طبقاً لمعاهدة كامب ديفيد التي وقعها أنور السادات ومناحيم بيغن برعاية الرئيس الأمريكي كارتر، من غير المسموح لمصر بنشر جيشها في سيناء.

٢ انظر، Dale B. Martin: *The Corinthian Body*, London, Yale University Press, 1995, p:190.



غورها، ولا تكفي لضمانها الأعمال؟ وهل يختصر رجاء الإنسان في أن تتحقق له البراءة يوم الحساب، أم أن شفاءه من أدران الروح الإنسانية أكثر مدعاة لرجاء الصفح والغفران؟ وفوق ذلك كله، هل يمكن أن يكون هناك فهم صادق لرسالة هي خاتمة الرسالات السماوية - وهو ما يقوله الإسلام - إذا ما فصلناها عما سبقها من رسالات؟

لم ترك علماءنا أمر ترجمة العهدين القديم والجديد للآباء اليسوعيين الذين أخرجوا لنا ترجمة لا نغالي إذا قلنا إنها كانت أمينة بما فيه الكفاية للنص الأصلي، لكنها كانت من ناحية ثانية ركيكة، بلا روح، غامضة وغير معبرة؟ وكيف لنا أن نفهم على وجه الدقة التباين - ليس بين الأوامر والنواهي فحسب، بل أيضاً بين المحتوى الديني والقصص التوراتي - الذي يفصل القرآن عن الكتابين الآخرين اللذين يعترف بأصلهما الإلهي؟ وهل يتعين ردّ هذه التباينات إلى الظروف التاريخية المختلفة التي انتشرت فيها هذه الرسالات ومختلف الجماعات التي نزلت عليها؟ ثم ما هي هذه العصور المختلفة وجماعاتها المختلفة بدورها؟ وكيف يمكن رسالة أن تكون كونية إذا كانت موجهة لجماعة خاصة؟

هناك حشد من المقالات والكتب التي تنشر أسبوعياً، وتعنى بهذه الموضوعات في كل من أوروبا والولايات المتحدة. والكل، كتاباً وقراءً، يعتبرها سبيلاً لبلوغ فهم أكثر نفاذاً لحقيقة الدين في تعاليمه ومكانته، بالنسبة إلى الفرد والحياة الاجتماعية. أما في ما يتعلق بالإيمان، فإنهم جميعاً يتصرفون كأنهم استوعبوا ما يكرره القرآن غير مرة، من أن الإيمان نعمة يفيض بها الله على من يشاء، تبعاً لمشيئته الحرة. لذا فهو وحده العليم بمن يؤمن به حقاً ومن لا يؤمن، إنه وحده الحكم الفيصل في هذا الأمر. إن نقص الإيمان يستحيل أن يرر الحرمان من المجتمع المدني أو السياسي. هنا تحديداً تكمن قوة الأمم الغربية المعاصرة: فما منحلة دينية - مما هي حال أصوليينا في نهاية المطاف - يحق لها أن تتهم بالكفر أعضاء المجتمع الآخرين، وأن تشتط في محاربتهم لهذا السبب. ذلك هو الأمر الذي يمكن من تجنب السبب الرئيسي لنشوب حرب أهلية، كما هي الحال في العراق راهناً على سبيل المثال، ما يمكن الأمة أن تبقى موحدة في معاركها وخلافاتها مع غيرها من الأمم. وسواء أكان رجال الدين عندنا تحت إمرة السلطة الزمنية لمبارك<sup>١</sup>، أم كانوا بمثابة أصوليين يدعون السلطة الزمنية لأنفسهم، فلقد انتهج علماءنا السبيل نفسه الذي سلكه رجال الكنيسة

١ كتبت هذه المقالة قبل أن تطيح ثورة الشعب المصري مبارك في الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١. (المترجم).

الكاثوليكية في العصور الوسطى، لجهة زعمهم أنهم وحدهم من يحتكر الحقيقة، من خلال إصرارهم على أنهم وحدهم من يمثل السلطة المؤهلة لتأويل القرآن - وبذا يقصرون مجال الحقيقة على أنفسهم فحسب ويقصون الآخرين عنها، كما ينكرون عليهم القدرة على البحث عنها بأنفسهم - إنهم يسلكون السبيل نفسه الذي سلكه غلاة الدوغمائيين الكاثوليك، بل يمكنني القول إنهم أكثر تعسفاً وغرابة مما تجيزه الكاثوليكية المعاصرة، إذا ما تذكرنا أن فكرة عصمة البابا قد صيغت لا كي تزيد من سلطته بل للحد منها: ذلك أن البابا لا يستطيع إلغاء قرارات أسلافه، إذ إنهم معصومون بدورهم! بينما ترى أن أياً من الأئمة ممن يعتبر ممثلاً للسلطة الدينية، أو أي رأس مدرسة فقهية بعينها، حر في مخالفة أئمة آخرين. أما القسم الثاني، فهم أولئك العلمانيون الذين ينضون، إذا جاز لي القول، في جماعة تمتلئ حماسة لحقوق الإنسان، لكنهم يخفقون في سؤال أنفسهم - ولو على سبيل الافتراض - إذا لم يكن مثل هذا الإلحاح على حقوق الإنسان يجيز للمرء نسيان واجباته كإنسان، فعلاً إذا ترتفع عقيرتنا مطالبة بحقوقنا في ألا نُقتل أو نُعذب، بدلاً من إعادة التوكيد على واجبنا في ألا نُقتل أو نعذب أياً من جيراننا؟ ولو كنا فهمنا أن فكرة حقوق الإنسان ليست وقفاً على العلاقات بين الأفراد، بل هي تنصب على العلاقات بينهم وبين حكوماتهم، عندها ما كان لدول الغرب أن تبدي هذه الحماسة للتنديد بتلك الدول التي لا تضمن حقوق الإنسان، حيث إنها (الدول الغربية) كانت هي ذاتها أول من سلب الأمم الأخرى حقوقها، بقدر ما ارتكبت أشد أفعال الظلم فحشاً (معظم شعوب الأرض) على الصعيد الفردي والجماعي، إبان مشاريعها الاستعمارية. فلنفكر فقط في المنحى الذي تتصرف به القوى الغربية، وكأنها المشرعة الوحيدة على الأرض، وذلك عندما تجرّم بنحو تعسفي كفاح الشعوب الأخرى التي تناضل لنيل حريتها واستقلالها.

وأما في ما يتعلق بالديموقراطية، فإننا نملك ولا ريب الحق في مناقشتها، إلا أن المناقشة الجادة تحتاج منا إلى التفكير في ما كتبه المؤرخ اليوناني توسيديوس، منذ خمسة وعشرين قرناً، من أن الديموقراطية كنظام للحكم إنما شرعت فحسب لدول على غرار أثينا التي تكفل لها قوتها العسكرية الهيمنة على العديد من المستعمرات، وهو الأمر الذي يحقق لها مستوى من الرخاء يخفف من حدة الصراع الطبقي. وعلينا من هذا المنظور أن نسأل أنفسنا عندها كيف يمكن الغرب أن يصدر الديموقراطية إلى دول ذات اقتصاد متخلف وبنى

طبقية مختلفة؟ يستدعي هذا السؤال أسئلة أبعد مدى بشأن تعريف الديمقراطية. فهل هي تقوم في المقام الأول على تعدد الأحزاب؟ وماذا لو أن أحدها استأثر بالحكم بنحو لانهاثي مع استبعاد كل الأحزاب الأخرى؟ وهل تستند الديمقراطية إلى الحياة البرلمانية؟ وماذا لو تحول البرلمان إلى حلبة صراع يسعى كل عضو فيه لخدمة مصالحه الشخصية؟ وهو - كما قد يبدو حتمياً منذ حلت الأم الصناعية الكبرى في العصر الحديث، محل دولة المدينة الأثينية الديمقراطية، حيث أصبحت الأشكال الأثينية للديموقراطية المباشرة أمراً مستحيلاً، إضافة إلى وجوب إقرار كل شيء بالاقتراع العام. إلا أن التصويت في الانتخابات يبرز مجموعة أخرى من الأسئلة من قبيل: ما هي العلاقة الحقيقية ما بين الناخبين وبين من يمثلهم؟ وما معنى هذا التمثيل؟ وهل يحل هذا الممثل محل ناخبيه؟ وإذا كانت هذه هي الحال، فهل يعني هذا اندماجهم في من يمثلهم، أو اندماجه فيهم؟ وهل يتكلم نيابة عنهم ليقول ما يفكر هو فيه أو ما يفكرون هم فيه؟ وهل يتفق هذا التمثيل مع مفهوم المساواة التي يعتبرها كل فرد مطلباً جوهرياً للديموقراطية، ما يؤدي إلى الاستفتاء في كل مسألة حاسمة، كما يؤدي على الصعيد الاقتصادي إلى الشيوعية؟ أم أن جوهر الديمقراطية - على النحو الذي يجادل فيه الليبراليون - لا يقوم على تلك المساواة التي تقتصر فقط على المساواة أمام القانون، بل يقوم على تلك الحرية التي يسمح فيها المجتمع للفروق الفردية كي تنمو بحرية بين أفرادها؟ ذلك أن الديمقراطية الحديثة قد تحدت بالاقتراع العام الذي يعني أن لكل فرد صوتاً واحداً فحسب، مهما كانت أهميته أو مكانته الاجتماعية، كما أن هذا التصويت إنما يعطيه الفرد انطلاقاً من البرامج التي تقدمها الأحزاب للشعب. وهنا نحن نميل إلى إقناع أنفسنا بالإشادة العائمة بالشعب وإرادته التي تمثل مصدر السلطات، من دون أن نأخذ في الاعتبار اختلاف الرأي الذي يسود نظرة الغرب نفسه، بشأن تعريفاته لـ "الشعب": هل هو مفهوم مجرد أو دائم للقانون العام، أم هو قوة قائمة بذاتها بغض النظر عن تلك النتيجة الخاصة بالانتخاب والاستفتاء أو استطلاعات الرأي، وما إليها؟ كما أننا نتجاهل تلك الأسئلة التي تدور حول العلاقة بين الدولة والشعب، وهي أسئلة من قبيل ما قرره هيغل من أن الشعب إنما هو ذلك الجزء من الدولة الذي لا يعرف ما يريد، أو الذي يعرف أحياناً ما لا يريد. وأحسب أن الأمر يقتضي منا حيزاً كبيراً لمناقشة فكرة القيادة، في هذا المقام، والتي لم يجد أحد حتى الآن تعريفاً شافياً لها، ولا لعلاقتها بالشعب. تكمن الصعوبة في

أن هذا المفهوم قد دفع البعض إلى القول بأن الشعب إنما هو مصطلح استخدمه قادة مختلفو المشارب، لا ابتداءً تلك المرأة التي تزين لهم تأمل مجدهم الشخصي فيها. وما هو الأكثر مدعاةً للدهشة، هو أننا لا نبدي إعجابنا في كثير من الأحيان بهذه الأفكار ونتلفظ بها من غير مساءلتها فحسب، بل إننا، أسوأ من ذلك، نبررها بردها إلى التراث الإسلامي. وبذلك نوحدا ما بين الديمقراطية والشورى، أو المجلس الاستشاري. وهي في جملتها مقاربات مغلوبة، ذلك أن الشورى ارتبطت بنهج في الحكم تكون فيها الحكومة بمثابة الوصي على الشعب، بينما ترفض الديمقراطية في العمق مثل هذه الفكرة عن الوصاية، إذ هي تردّها إلى الشعب نفسه كمصدر للسلطة. وبالمثل، فإن المقارنة بين فكرتي المصلحة العامة والجماعة هي مغالطة بدورها، ذلك أن المصلحة العامة إنما هي في الأساس مفهوم إداري يفترض وجود المجتمع المدني، بينما تشي الجماعة بوحدة روحية ترى تطبيقاً أولياً لها في جماعة المصلين في المسجد: فإذا ما أحالت على فكرة أخرى فسيكون ذلك للإمامة.

إننا عندما نقوم بمثل هذه المقارنات الخادعة، لن يفوتنا طرح الأسئلة الآتية: هل سبق لنا أن عرفنا - في أي وقت - عبر تاريخنا أي شيء شبيه بالمجتمع المدني؟ هل يمكننا عدم تفسير قولنا بأن الإسلام إنما هو سلطة روحية ودينية (دين ودولة)، وكأنها تعني سيادة السلطة الروحية على كل جنبات الحياة الدنيوية، في حين أننا نخضع في الآن عينه لسلطة الخليفة أو السلطان، ما يعني في نهاية المطاف الاستسلام للسلطة الزمنية؟ أولاً نخلط بذلك بين أمور يفترض أن تكون متميزة؟

إن المستقبل مجهول. فما من أحد يعرف أي فريق سيحالفه التوفيق، أو إذا كان سينتج أموراً غير متوقعة بالمرّة. أما بالنسبة إلى الحاضر، فكل ما يمكن أن نراه إنما هو العجز أو ردود فعل اندفاعية مملّيتها سياسة الغرب وسيادة التكنولوجيا على مصائر المجتمعات الإنسانية. ليس هناك راهناً مفصل مفهومي للأفكار يقدم لنا إمكان تغيير أنفسنا، بحيث يكون لنا وجود تاريخي، لا مجرد وجود جغرافي فحسب. تلك هي المهمة التي تواجه المثقفين في بلادنا، وخاصة في جامعاتنا، سواء أكانت دينية أم علمانية، أساتذة وطلاباً على حد سواء.

## الفصل الثالث

# التوارث الخلاق والتوارث الآسن<sup>١</sup> الثقافة والسلطة

ما أودّ أن أبينه هنا هو التفرقة ما بين الحضارة (Civilisation). عما هي ظاهرة نشأت مع بزوغ الدول والإمبراطوريات القديمة، والتي انسجمت ديمومتها مع نط من التوارث الراكد الرتيب، من قبيل أن نرى المحراث ذاته الذي لا يزال يحراث التربة المصرية منذ آلاف السنين، من ناحية، وبين الثقافة Culture كمصطلح أستخدمه لأشير إلى ما اعتبره ظاهرة أوروبية محضة، برز للمرة الأولى ما بين عامي ١٠٥٠ و ١٢٥٠، حاملاً معه نطاً جديداً من التوارث الذي يمثل السر الدفين لقوة الغرب، من الناحية الثانية.

هناك واحدة من الحكم الماثورة اللاذعة قالها في القرن الثامن عشر المفكر الألماني ليشتنبرغ حيث يخبرنا بأن "هناك أنواعاً من الحيل الصوتية المتجاوزة (من قبيل التكلم من البطن من دون تحريك الشفتين) والتي تحمل الناس على الاعتقاد بأن شيئاً ما قيل على الأرض قد نزل من السماء"<sup>٢</sup>.

قد تتباين الآراء بشأن معرفة ما إذا كانت الحقيقة هي في نهاية المطاف ماثوراً أرضياً أو سماوياً. لكن ما أراه هو أن لا قيام لمجتمع إنساني على الأرض من دون مرجعية سماوية من نوع ما.

١ نشرت المسودة الأولى لهذا الفصل في مجلة إبداع القاهرية، نوفمبر ١٩٩٢.

٢ انظر Georg Christoph Lichtenberg, waste Books, Trans. Hollingdale, R.J. (New York: Review Books, 2000, p. 39).

من البديهي والحقيقي أن القوانين يستنها كلام البشر، إلا أنه من الحقيقي كذلك - وإن لم يكن بالبداهة ذاتها - أن هناك قوانين لم يستنها أحد، وإن خضع لها كل كلم<sup>١</sup>. لنأخذ على سبيل المثال النهي عن الكذب: سنجد أنه ما من كلام إلا تتضمن إشارة إلى الحقيقة، حيث يمكن الاستشهاد بأنه ما من أحد قادر على أن يكذب لولا رهانه على تصديق المخاطب له، أي على اعتقاد الآخر بأن ما يقوله إنما هو الحقيقة. نستطيع أن نرى من هذه الزاوية أن النهي عن الكذب يمكن أن يعتبر بمثابة تذكير بهذا البعد المتحقق في طبيعة الكلام (ومطابقته للحقيقة).

دعنا نتناول النهي عن القتل، بمثابة مثال ثان. بإمكاننا أن نقدر معناه إذا ما لاحظنا أن الكلام إنما هو المخرج الوحيد الذي يسمح لنا بالتحرر من ذلك الجدل الهيجلي عن السيد والعبد، والذي يتضمن الصراع المميت من أجل الكرامة. إنني أحيل هنا على الوصف البليغ الذي قدمه كلود ليفي ستراوس في "البنيات الأولية للقرابة" عن ذلك التوتر الذي ينشأ بين شخصين يلتقيان مصادفة في أحد المطاعم بجنوب فرنسا ويجدان نفسيهما جالسين وجهاً لوجه إلى المنضدة ذاتها.

وكما لاحظته ستراوس، ليس تبادل الأنخاب هو ما يمكن تخفيف التوتر الناشئ بينهما<sup>٢</sup>. ذلك أنه ما من تأثير لذلك إذا ما تم المشهد في صمت<sup>٣</sup>، إذ إن تبادل الأنخاب والحالة هذه هو مجرد احتفال بتبادل الكلام الذي وحده يجلب السلام. إن النهي عن القتل يلزمنا بأن نلجأ إلى الكلام كشرط للوجود المشترك في ما يشير إليه هايدغر بتعبير الوجود معاً Mitsein. وفضلاً عن ذلك كله، فإننا إذا ما أخذنا في الاعتبار أن الشكل الأولي الغالب للكلام ليس توكيدياً - كما يفترض المنطقة والجمهرة الغالبة من اللسانيين - بل هو يقوم على الطلب<sup>٤</sup>، ما يعين علينا أن نسلم عندها بأن النقص هو ما يولد الكلام، ومن ثم لا توجد

١ صفوان، مصطفى (٢٠٠٨)، الكلام أو الموت (ترجمة مصطفى حجازي)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

٢ Claude Levi-Straus, *The Elementary Structures of Kinship*, rev. Edn, trans. James Harle Bell, John Richard Von Structure and Rodney Needham (ed). (Boston: Beacon Press, 1969, 59).

٣ إن بعض التبادلات تتم في صمت؛ تأتي جماعة من الغرباء في قواربهم، ثم يتركون هداياهم أو بضائعهم على شاطئ البحر ويعودون إلى قواربهم، من ثم يخاطرون الأهالي بالخروج إلى الساحل كي يأخذوا الهدايا، ويتركون بعض الأشياء عوضاً عنها، ويقدر ما تتم به هذه العملية كلها كأنها مشهد من البكم، إلا أنها بالأحرى تدل على عدم الثقة، كما أنها لا تقود إلى سلام.

٤ وحتى تلك التأكيدات التي تتضمن ما قدمه فيكتور بروشار في مؤلفه بعنوان 1926 Felix Alcan De L'erreur, Paris والتي سميت "العصر التطوعي للحكم"، وهي وصية غير قابلة للاختزال، إذ إنها تكمن وراء وحدة المبدأ والخير.

أرضية لموضوع حديث بذاته من دون مقدمة عن نقصان أصيل لا يمحى أثره. وهنا نأتي إلى وظيفة الوصية الثالثة التي تنهى عن: سفاح المحارم<sup>١</sup>. إن النهي عن التمتع الجنسي بالشخص الحميمي، أي الأم، التي تشبع الأنواع الأخرى من النقص، أي تلك التي تتصل بالحاجات البيولوجية بقدر صلتها ببناء الحب؛ فالأم تغذي وتحب، باعتبار أنه إذا لم يكن هناك شيء قد حرم منه الطفل، فلن يستطيع عندها أن يعبر عن رغبته. وعلى هذا النحو، فإذا لم يستتب فعل العطاء رداً له، فإن ذلك يعني أن النهاية ليست مجرد تبادل العطاء. والذي يقول عنه مارسيل موس بأنه روح؛ ليس مجرد روح الوجود الاجتماعي، بل هو نهاية كل مسؤولية ذاتية<sup>٢</sup>. وأذهب إلى القول إن هذا الإلزام هو ما يقدم بعد الحقيقة في كلامنا. وحيث إن كلامي يقوم دوماً على إجابة بعينها، فإنني مسؤول دوماً عن حقيقتها.

ما من مجتمع إنساني يمكنه أن يجهل - ولا أقول يحترم - هذه الوصايا، سواء أكانت في صورة مكتوبة أم غير مكتوبة. وما من مجتمع يمكن أن يعتبر أيّاً من أعضائه بمثابة مبدع لهذه الوصايا مهما علا مقامه، لأنه ما من شرعية يمكن أن يحتكم إليها أو يدعى هذا الاحتكام، غير شرعية واحدة هي هذه الوصايا الملزمة. وبخلاف القوانين الوضعية، فإن هذه الوصايا تنسب عادة إلى الأسلاف، والآلهة، أو إلى كائن يتجاوز نطاق البشر [إن الدين هو في المحل الأول مستقر القوانين وحصنها الحصين، وهو من هذه الوجهة لحمة المجتمع وسواه، أو كما يقول البعض في الغرب هو التمثيل الذي يتجسد به الرمز في حياة المجتمع الإنساني بما هو كذلك]. ولكي نكون أكثر دقة، فإن هذه القوانين، التي تركز عليها وظيفة اللغة، هي بمثابة رابط اجتماعي وكوسيلة للتواصل والنقل تُمثّلنا على المستوى الخيالي إلى استنتاج القول بمشروع<sup>٣</sup>. ولو اعتبرنا الوصايا العشرة بمثابة إبلاغ قوانين الكلام، عندها يمكننا أن نتدبر قصة إله موسى الذي يعلّمها باعتبارها الأقرب لما له أو ثِق ارتباطاً بالنظام الرمزي.

١ لا يمكن تفسير النهي عن سفاح المحارم بالرجوع إلى قوانين الزواج، أو التبادل، إذ إن مثل هذه القوانين لا يمكنها تفسير السبب الذي لا تستطيع معه الأم أن تعرض ابنها للممارسة الجنسية قبل الزواج.

٢ انظر: Marcel Mauss, *The Gift: Form and Reason for Exchange in Archaic Societies*. Trans Halls, W.D. (London: Rourledge, 1990).

٣ لست في حاجة إلى التأكيد أن المفهوم الذي قدم هنا لا صلة له بفكرة تونيس عن الشخص الخيالي (المخلوق) الذي يمكن تخيله باعتباره منبثقاً عن نظام الواقع، وإنما هم شخص متفردة (كائنات بشرية) عمل مجرد بديل في المجال الذي يسميه "المجتمع المدني" كيانا معنوياً.

انظر في هذا الصدد: Jose Harris and Marguerite, ed. Ferdinand Tönnies, *Community and Civil Society*.

نلمس هنا الأولوية الأساسية للمعتقد، أعني الاعتقاد بالمتعالى أو المكان الثالث (المتجاوز لأي ثنائي ما بين ذاتي) للمشروع في علاقته بما هو كينونة مؤسسة. تلك هي البرانية التي تمثل سر السلطة. إن الدين، فيما يتجاوز كل أيديولوجيا، هو الملاذ الأخير، حيث تجدد هذه الوصايا أساسها النهائي. إنها تكرر الوجود الاجتماعي المشترك وتدعمه على خلفية من الاعتقاد الشائع بموضوع متعالٍ، غير قابل للاختزال إلى ثنائيتي وثائيتك. وبفضلها يصبح النظام الخيالي أداة تجسيد الرمزي في المجتمع الإنساني. فإذا ما اختلفت الأديان على الرغم من هذه الوظيفة العالمية، فذلك لأن كل دين يضيف إلى قوانين الكلام هذه شيئاً آخر مستمداً من العرف. وفي الواقع فإن قوانين العرف قوية وملزمة كالقوانين الدينية سواء بسواء، وهي كثيراً ما ارتدت الطابع الديني أو المقدس، ولا يحتاج المرء إلا إلى التفكير في محرمات الطعام والشراب، أو في قوانين الزواج والميراث في الإسلام ليرى صدقية ذلك. ومن ناحية أخرى، فالدين هو ما ينص عادة على أولئك الذين يحق لهم مخاطبة الناس باسم الله أو باسم السماء: إنهم السلف، والكهنة، والأنبياء، أو الحكام والقساوسة ومن إليهم. ينص كل دين أيضاً على شعائر عبادية، وخاصة ما يتصل منها بالصلوات والأضاحي. وبمكنا على وجه الإجمال القول بأنه كما لا يتجسد العالمي إلا في الخاص، فكذلك لا يمكن أن يكون الدين في خدمة الوصايا الرمزية من دون أن يخدم نرجسية الجماعة [عجابها بذاتها].

قد يقول البعض إن هذا الوضع ينطبق على المجتمعات القديمة فحسب، بينما تلتقي المجتمعات الحديثة اليوم على أرضية جديدة من العلم وليس الدين، ولكن هذا الرأي يدحض ما نراه اليوم من احترام المشاعر والحركات الدينية، سواء في الشرق أو في الغرب، وهو احترام لا يبارى منذ الحروب الصليبية، فضلاً عن تصاعد العنصرية، ما يبرهن على بطلان هذا الزعم.

تشير الوقائع إلى أن مالرو ربما كان على حق عندما قال "إن القرن الحادي والعشرين سيكون روحانياً أو هو لن يكون".

ولو أننا عدنا إلى الماضي لتبين لنا أن هذه الفكرة الأساسية عن التعارض الجوهرى ما بين العلم والدين إنما هي خاطئة برمتها. فالعلم الحديث مدين بوجوده لأربعة رجال هم: كوبرنيكوس الذي كان رجل دين واسع النفوذ في بولندا، وكبلر الذي ذهب إلى جامعة



توبنجن لدراسة اللاهوت، لكن أسأذته إذ رأوا ما حظي به من موهبة في الرياضيات، أرسلوه لتدريس الرياضيات والأخلاق في جامعة غراتس، ثم هناك نيوتن الذي تريد كتاباته في اللاهوت وتفسير التوراة على ما كتبه من علوم الطبيعة والرياضيات. ويبقى فقط غاليليو الذي يدفعنا إلى التفكير بالتصادم مع الكنيسة، إلا أن قصته ليست أبداً بالقصة اليسيرة.

كان غاليليو أول رجل في التاريخ استطاع أن يدرك تمام الإدراك أن نسقاً من العلم أخذ في الزوال، وهو النسق الأرسطوطاليسي القائم على فهم مشترك ينظر إلى الأشياء باعتبارها جواهر فردية، وأن هناك نسقاً جديداً على وشك أن يأخذ مكانه، وهو العلم الرياضي، الأمر الذي يعني تحول العالم إلى مجموعة من الحروف والأعداد التي تتنظم في معادلات، وكذلك تحول رجل العلم إلى ذات لا علاقة لها بالذاتية، إذ جردت من كل صفة سيكولوجية أو حتى إنسانية، كي يقتصر تعريفها - كما قدمه ديكارت - على الفكر وحده. وفضلاً عن ذلك، فقد قام غاليليو بتحسين نوعية العدسات في تلسكوبه، الأمر الذي مكّنه من اكتشاف أقمار المشتري الأربعة، وهو الاكتشاف الذي قدمه دحضاً مرئياً للأطروحة الأرسطوطاليسية التي زعمت أن الأرض كانت المركز الوحيد الذي تدور الكواكب من حوله. وهو ما جعل من الصعب عليه أن يقبل التسوية التي اقترحتها الكنيسة، والتي ادّعت أن نظريات كوبرنيكوس وبطليموس تستويان من حيث إن كلاً منهما إنما هي مجرد "إنقاذ للظواهر"، ولكن الله وحده هو من يعرف حقائقها. وعلى النقيض من ذلك كان غاليليو مثل كوبرنيكوس من قبله، ونيوتن من بعده، يعتقد أن من أعظم نعم الله علينا أن منحنا القدرة لتعلم بعض الحقائق التي يعلمها. أضف إلى ذلك كله أن غاليليو كان واحداً من أعظم الدعاة الذين عرفهم التاريخ بأسلوبه الفريد في النثر الإيطالي إبان القرن السابع عشر، إلا أن حماية آل مديسيس له وسخاءهم عليه حماه من غضب اليسوعيين ومؤامراتهم اللاحقة ضده، على نحو يذكرنا بتراجيديا روبرت أوبنهايمر، وهو أبو القنبلة الذرية في حقبة المكارثية في الولايات المتحدة. خلاصة القول إن اصطدام غاليليو كان مع الأرسطوطاليسية في المقام الأول، وما صدامه مع الكنيسة سوى نتيجة لذلك. كذلك فإن مثوله كارهاً أمام محكمة التفتيش الرومانية لا يترك مجالاً للشك في صدق إيمانه بالكنيسة الرومانية المقدسة. لقد كان هناك العديد من الرجال العباقرة العظام في القرن السابع عشر، سواء في العلم أو في الدين، حتى إنه سمي بحق

قرن العباقرة الذي بلغ فيه بلير باسكال شأواً عالياً بينهم.

وحتى في عصرنا هذا، فإننا نعرف مبلغ استياء أينشتاين عندما بدأت نظرية الكوانتوم تشكك في الحتمية الميكانيكية التي ميزت العلم منذ أن استقر على يد نيوتن، وكيف عبر عن انزعاجه في جملة الشهيرة "إني مقتنع بأن الرب لا يلعب النرد". أريد بهذه الإشارة القول - وإن لم يتسع المقام للخوض في شرح ما أقوله - إن رجل العلم يتضمن موقفه تسليماً صريحاً أو غير صريح بأن فوق كل ذي علم عليم، هو مشرع الكون وليس مشرع القوانين الإنسانية وحدها. فالتعارض بين العلم والدين أبعد ما يكون عن هذه الحدة التي يدعيها أنصارهما، الأمر الذي يعود بنا إلى السؤال عن معنى العلمانية<sup>١</sup>.

هل تعني العلمانية مجتمعاً كلي الإلحاد؟ إن في هذا الرأي وهماً أكثر استعصاءً من وهم الدين ذاته. دفعت الشيوعية ثمناً عالياً لاعتناق هذا الوهم، مع أنها هي الأخرى نوع من العقيدة. إن الدين هو روح المجتمع أياً كان، وليس مجرد "روح مجتمع بلا روح". هل تعني العلمانية أيضاً الفصل ما بين الدين والدولة؟ [الجواب أيضاً: كلا]. صحيح أن مثل هذا الفصل بين السلطين أمر ممكن بالفعل، ولكن علينا ألا ننسى أننا سنكون عندها شهوداً على مجموعة من الظواهر التي تذكرنا بآلية الكبت الفرويدي الفردي وعودة المكبوت. وإلا فما الذي تعنيه الرموز والطقوس من قبيل مراسم التتويج، وافتتاح البرلمان، والأعلام التي يحوم المواطنون من أجلها، أو اليمين التي يقسمها رئيس الولايات المتحدة واضعاً يده على الكتاب المقدس؟ فضلاً عن المؤتمرات الصحافية: تكفي مشاهدة أي قائد سياسي (شيراك، بلير، بوش) على شاشات التلفزيون في أي من هذه المؤتمرات نرى مثلاً حياً "للكهانة السياسية"، إذ إن المراسم السياسية في حقيقتها لا تعدو كونها من بقايا الطقوس بقدر ما نحلبها - أنا وأنت - على أي سجل ثالث أو متعال، سواء أكان إلهياً أم نسقاً من القيم التي لا تقل قداسة.

إن العثور على إجابة لا لبس فيها لسؤالنا عن معنى العلمانية، يقتضي منا التفرقة ما بين بعدين للحياة الاجتماعية.

البعد الأول هو البعد الأفقي، وهو يتضمن حصيلة الأفكار التي تشمل المعارف التقنية،

١ إن الكلمة العربية "علمانية" التي نستخدم لترجمة الكلمة الإنكليزية Secularism إنما اشتقت من كلمة "علم"

من قبيل إجراءات مسح الأراضي، أو صناعة الخزف وتحصينات المدن، كما تشمل بالمثل المعتقدات الاجتماعية والدينية.

واقع الأمر أنه غالباً ما يكون من الصعب الفصل بين ما يتعلق بالمعرفة وما يتصل بالمعتقد، وذلك على الرغم من سهولة التمييز بينهما ذهنياً. وربما كان من أوضح الأمثلة على الأمرين، مما ارتبطت به تلك الأسئلة عن المعرفة المجردة، مع تعقيدات الحياة الاجتماعية، إنما هو إسهام علماء الرياضيات المسلمين من أمثال ثابت بن قرة، والخوارزمي، والكاشي في تطوير الرياضيات: حيث يعود إليهم الفضل كله في نقل مركز الثقل من الهندسة إلى الجبر. بيد أن هذا التطور كان على الأرجح بسبب تعقيد مشاكل الميراث التي أوجدتها الشريعة الإسلامية، وهي مشكلات ما كان لها أن تظهر في مجتمعات يؤول فيها الميراث إلى الابن الأكبر وحده.

أما البعد الثاني فهو البعد الرأسي، وأعني به التوارث من جيل إلى آخر. وهو توارث يقوم في عمومته على التربية التي تتعهد بها الأسرة أولاً، ثم تتولاها بعد ذلك مؤسسات الدين والدولة، مع التسليم بأن الأسرة نفسها يمكن اعتبارها نتاج الدولة و/أو الدين، حيث يتولى أحدهما أو كلاهما التصديق على عقد الزواج أو فسخه. إن العلمانية حسب تعريفها، إنما هي قطعة كاملة مع تلك الأشكال التقليدية للتربية والتوارث. هذه القطعة هي الثقافة التي أشرت إليها كظاهرة أوروبية محضة، والتي ظهرت ما بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثالث عشر. لقد كان ذلك في تلك الحقبة التي فقدت فيها الإمبراطورية التي بناها شارلمان (الإمبراطور الجرمانى) - الذي ادعى أنه الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية - سلطتها في مواجهة الدول القومية الموناركية (الملكية) الناشئة، وخاصة في إنجلترا وفرنسا. إلا أن هذه الدول الناشئة كانت لا تزال ضعيفة نسبياً، ولم تتمكن من الانتشار في كل أوروبا. لذا كانت الكنيسة أهم دولة في هذه القارة، حتى إن بعض المؤرخين تحدّثوا عن "الإمبراطورية البابوية" التي وقعت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن حدود أوروبا من هجمات المسلمين في الجنوب، والقبائل الإسكندنافية في الشمال، كما أنها شنت الحروب الصليبية جنوباً، وحملاتها التبشيرية شمالاً - في الدنمارك وبلاد البلطيق، وكان البعض منها مثل ليتوانيا قد ظل يدين بالوثنية حتى القرن الثالث عشر. لقد كانت هي الدولة التي تعين عليها أن تتحمل المسؤولية الدولية عن أوروبا في الخارج، إضافة

إلى مهمات الدولة في الداخل: من قبيل جباية الضرائب، وتعبئة الجيوش والأساطيل، وبناء الجسور والمستشفيات والكنائس، والإشراف على عقود الدفن ومراسمه وتوزيع الميراث، وإجراء التعداد السكاني. أما التعليم، فمن نافلة القول أن نذكر أنه كان في يد الكنيسة. والواقع أن الفصل ما بين السلطين الزمنية والروحية يستند إلى قول السيد المسيح "أعط ما لله لله، وما لقيصر لقيصر"<sup>١</sup>، وهو واحد من مبادئ المسيحية التي لم يطاولها النسيان أبداً. إلا أن هناك معتقداً آخر من تعاليم المسيحية يتمثل في وهب السيد المسيح لبطرس الرسول سلطين، رُمز إليهما بسيفين: سيف الدين وسيف الدنيا، ومعه ثار السؤال الذي تردده صدهاء في العصور الوسطى: من هو خليفة بطرس؟ لقد رأت الكنيسة أن السيفين هما سيفها؛ فسيف الدين من الواضح أن ملكيته ثابتة لها، أما سيف الدنيا فقد جعل لخدمتها على النحو الذي تراه مناسباً، وما الإمبراطور الذي اختارت توظيف هذه السلطة في شخصه، غير خادماً للكنيسة. في حين رأى الأباطرة أن سلطتهم لم تؤل إليهم من البابوية، بل من حق كل منهم الذي لا يمارى في الخلافة.

إلا أن الأكثر أهمية بالنسبة إلينا هو الحروب الصليبية التي حفلت بنتائج ما كان للكنيسة أن تتوقعها. فقد تعددت الروابط بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي، ومن ثم تمكن الأوروبيون من اكتشاف نفائس التراث اليوناني الذي أذخرته الحضارة الإسلامية، من نصوص أصلية وترجمات وشروح، وذلك فضلاً عما عثروا عليه في بيزنطة. لقد ظهرت في كثير من المدن في هذه الحقبة طبقة جديدة من الرجال، كان التدريس والتعلم شاغلهم الوحيد.

إنهم المشتغلون بأذهانهم (المفكرون)، وذلك لإعطائهم اسماً يعبر عن السبيل الذي ارتأوه لأنفسهم، والدور الذي قاموا به في تلك الحقبة المليئة بالتحويلات، حيث أصبحوا مراكز تحلق حولها الشباب الذين ينتمون إلى البورجوازية الناشئة التي نمت وتطورت. ولقد تكونت منهم ومن مريديهم طبقة اجتماعية جديدة ظهرت في مجتمع لم يكن التجار والحرفيون ورجال الدين والنبلاء يعتبرون فيه أنفسهم أفراداً متساوين أمام القانون، بل كفتات اجتماعية لكل منها حقوقها وامتيازاتها. وبالفعل فإن الصراع الكبير بين الكنيسة والإمبراطورية، إضافة إلى الصراعات الثانوية التي تورط فيها الملوك ونبلاء المدن، أتاحت

لكل فئة من المجتمع الأوروبي أن تتضامن معاً للدفاع عن مصالحها، وذلك على شكل روابط جامعة [ومنه اسم "الجامعة" بالمعنى الذي نعرفه اليوم] تسمى المتجسديات. كانت هذه المتجسديات - كما سبق بيانه - من خلق المجتمع الأوروبي، ومقطوعة الجذور عن القانون الروماني. وسرعان ما أصبحت قوة يحسب لها حسابها. إن فكرة وجود "حاكم مطلق" لا تصدق على العصور الوسطى، ذلك أن ملوك هذه العصور كانوا يستشيرون مجالس تضم ممثلين لمختلف الفئات، ومن خلال النموذج المتجسدي حيث ضاfer المشتغلون بأذهانهم (المفكرون) قواهم وأصبحوا سلطة خلاقية، أنشأوا جنباً إلى جنب مع تلاميذهم تلك الجامعات التي استفادت من النزاعات بين الأطراف المختلفة، وأسسوا مناهج وبرامج مستقلة. وكان كل طرف من هذه الأطراف سخياً في تقديم الأموال، نظراً إلى ما تحققه هذه الجامعات من نفوذ متزايد بين الشباب. وكانت الجامعات تقبل الأموال بشروطها الخاصة، فإذا وضع المتبرع شروطاً غير مقبولة، كانوا يتحولون إلى طرف آخر من الأطراف المشتبكة في الصراعات السياسية التي لا تقف عند حد، حسبما يوافقهم. ولنضرب مثلاً واحداً لهذه الهبات والطريقة التي أدت إلى تطور الجامعة، من مثل تلك الهبة التي أغدقها فريديريك بارباروسا على جامعة بولونيا في عام ١١٥٨ لتمنح الطلاب الأجانب الحق في الإقامة فيها. وكان من نتائجها أن الطلاب الذين وفدوا إليها مع عائلاتهم أصبح لهم تأثير كبير في شؤون إدارتها. ولقد تراجع الاهتمام بالدراسات اللاهوتية لمصلحة الدراسات الاجتماعية، وخاصة القانون الذي حظي تعليمه بأهمية كبيرة أعطى الجامعة سمعة دولية في هذا الميدان. إلا أن الأمور جرت على نحو مغاير في جامعة باريس، عندما أمر البابا هونوريوس الثالث عام ١٢١٩ بحذف دراسة القانون المدني فيها، وربما كان ذلك تحت وطأة الضغوط التي مارسها ملك فرنسا فيليب الثاني الذي خشي من تأثير هذه الدراسات على القانون الفرنسي. ولكنه قدم للجامعة عوضاً عن ذلك مزايا عظيمة جعل منها كعبة دارسي الفلسفة واللاهوت، حتى صار الطلاب الأجانب أكثر عدداً من الطلاب الفرنسيين. ومن ناحية أخرى، فإن جامعة أوكسفورد، التي لم تكن قد حظيت بعد بالشهرة ذاتها، حافظت على طابعها التقليدي في تدريس اللاهوت، وركزت دراستها على شرح الكتاب المقدس، ولذلك لم تبد شغفاً بدراسة المشكلات الفلسفية التي قدمها أرسطو وابن رشد وابن

سينا، وإن أولت اهتماماً بالغاً بكتبهم في علوم الطبيعة. فلا غرو أن كان روجر سيكون واحداً من المتخرجين فيها. كانت هذه الجامعات التي لم تتوقع الكنيسة ظهورها قلاعاً لتوارث الفكر المستقل عن أي حكومة زمنية أو روحية. وبهذا المعنى يمكن القول إنها كانت مؤسسات علمانية. وعلى النحو الذي شهد فيه القرن السادس عشر ظهور الروح الإنسانية المستلهمة من المثل الأعلى الشيشروني لمن يقوم بالخطابة، شهد القرن الثالث عشر هذه الظاهرة الجديدة، حيث حل المدرس محل الأسقف والقس، كشارح للمذاهب والنصوص بتفويض من مؤسسة مستقلة، وذلك إن لم يكن من تلقاء نفسه. وحقيقة الأمر أنه سرعان ما حل هؤلاء المدرسون محل الأساقفة وغيرهم من رجال الدين، بمثابة مبدعين للمذاهب التي تأثرت بها الكنيسة ذاتها. ومن ناحية أخرى، فإن المتخرجين في هذه الجامعات كانوا يمثلون العناصر التي لا غنى للدولة عنها، في مجالات من قبيل القانون والهندسة والطب والعمارة والفن. لم تنشئ الدولة الجامعات في أوروبا - كما كانت عليه الحال في مصر والعديد من البلدان المستعمرة الأخرى - بل على النقيض من ذلك فقد ازدهرت هذه الجامعات بمحاذاة الدول. وإذا كان من المغالاة القول إن الإنسان قد بلغ سن الرشد في عام ١٢٥٠، إلا أن هناك حقيقة، يقرها جمهور المؤرخين، ترى أن الإنسان انتصب للوقوف على قدميه في ذلك التاريخ كي يرى العالم من حوله. وما كان للعلم أو للعصر الحديث أن يبرز نجمهما بغير هذا التطور. وإلا كيف يمكن أن يوجد كوبرنيكوس من دون جامعة بولونيا، أو كبلر من دون جامعة توبنجن؟ وما كان لغاليليو أن يكون من دون جامعة بادوا حيث تعلم ودرّس فيها، وما كان لنيوتن أن يكون بغير جامعة كمبردج.

لقد سارت الأمور على نحو آخر في عالمنا نحن، ولا أجدني في حاجة إلى الإطالة في الحديث عنه. فالشرق الأوسط هو مهد الحضارة حيث ظهرت فيه الدول بفضل الكتابة، وأصبحت من ثم إمبراطوريات، إلا أن هذا النزوع الطبيعي لدى الدولة لاستعباد الدول الأخرى واستعباد أهلها، إذا أمكن، أدى بهذه الدول القديمة إلى إخضاع فن الكتابة لأغراضها الخاصة، حيث قصرت تعليم الكتابة على طبقة بعينها من موظفيها، وحجبتها كلياً عن الشعب. وإنه لأمر بالغ الدلالة من هذا المنظور أن الدول التي نشأت الكتابة على أرضها ما زالت شعوبها تعاني الأمية إلى حد بعيد، ما يسهل على أجهزة الدولة وضع

رعاياها تحت قبضتها. إن هذا الخوف الدفين من الشعوب، وهو خوف دولتنا المستبدة الذي يمتد لآلاف السنين، لهو "أخبت رذائل النفس" كما يقول بولجاكوف، وقد امتد خيئه عندنا حتى طاول وظيفة الكلمة. فبدلاً من أن تكون أداة التزام للإنسان [أمام ضميره أو أمام الباري] أصبحت أداة هروب من كل التزام، حتى إن المرء قد يشك في أن يكون تعبير "إن شاء الله" الذي نستخدمه عند كل اتفاق أو وعد، لا يصدر عن إيمان حق، وإنما يستخدم تجنباً لما تفرضه المسؤولية القاطعة عمّا يتفق عليه<sup>١</sup>.

إنني أتكلم عن الدولة لا عن الدين. صحيح أن الدين محافظ بطبيعته، إلا أن هذه الخاصية إنما تعني الحفاظ على تصميم الجماعة على البقاء، بينما تعني محافظة الدولة الاستئثار بالسلطة [بمقاليد الحكم] والحفاظ على مزايا أولئك الذين يديرون الدولة [والطبقة التي يخرجون منها]. فالقول بأن غلبة الغرب على الشرق إنما ترجع إلى الاختلافات بين المسيحية والإسلام، بما يعني أن المسيحية منفتحة على الجدل، بينما الإسلام يظل بمثابة كتلة منغلقة، هو قول هراء يمكن دحضه بمثالين مختلفين. أولهما أن الإسلام قد اتسع في بعض عصوره لجدل حاد جداً ومثمر بين "أصحاب الرأي"، أي أولئك الذين يؤمنون بالجديد، و"أصحاب الحديث" من التقليديين. وثانيهما أن أباطرة المسيحية ذاتهم حين استقروا في الشرق، في بيزنطة، وحذوا حذو ملوك الفرس (الذين كان يسمى الواحد منهم نفسه "ملك الملوك")، ونقلوا عن بلاطاتهم الترف والبهاء (مثلما صنع الأمويون والعباسيون بعد ذلك)، آلت المسيحية ذاتها إلى زوال من دون أن تترك أثراً يمكن أن يقارن بما خلفه الإسلام أو المسيحية الغربية - باستثناء بعض الأقنونات.

أحسب أن من الأصوب القول إن الإسلام كان ضحية الأمم التي غزاها، هذه الأمم التي كانت بدورها ضحية النظم السياسية وأجهزتها الإدارية التي كان هدفها الوحيد ضمان هيمنة الدولة وسيطرتها على جميع مناحي الحياة. ونتيجة لذلك، صرنا أمة مستعدة لأن تهلل لأي ممن عصف به جنون العظمة (الميجالومينيا)، مدّعياً بأنه الأوحد الذي "سيقوم المعوج من جديد". إنها أمة تنتظر مجيء المنقذ، إلا أنها لن تجني شيئاً غير خيبة أمل متكررة.

١ من الكلمات الأكثر شيوعاً في العامية المصرية اليوم، كلمة "تقريباً"، التي تعني "غالباً". ويمكنك أن تسأل أحدهم - على سبيل المثال - إن كان السيد فلان أو غيره في مكتبه فيأتيك الرد للتو "تقريباً"!

فماذا عن الثقافة؟ إذا كنا نقصد بهذا المصطلح امتداداً لما سبق أن عرّفناها به، من كونها منهجاً للتوارث الخلاق، من ثم فإن كل ما يمكننا قوله إن مصر - ودعونا نقصر حديثنا عليها - لا تخلو من أناس مثقفين لكنها تخلو من الثقافة. إنه الأمر الذي ترى معه أن مهمة كُتابنا [مثقفينا] ليست الدفاع عن ثقافتنا أو التنبؤ بمستقبلها، بل في خلق هذا المستقبل. وهي مهمة مستحيلة إلا إذا اتخذوا من الخالق قدوة، فيبدأون من حيث بدأ، حيث قال لرسوله: اقرأ. حين يبدأ مثقفونا بصنع الحروف من أي مادة كانت، من الخشب أو الحديد أو البلاستيك، وعندما تنتشر الحروف على أرض مصر انتشار الرمال، وعندما يصبح أبنائها قادرين على أن يؤلفوا من هذه الحروف آيات من الكتب والأشعار والأغاني أو الزجل أو أي شيء مما يوجد به إلهامهم... وعندما يبدأ مثقفونا بإنشاء مدارس لتعليم الفنون، من قبيل الرسم والنحت، والشعر والرواية والصحافة والمسرح، وما إليها، فضلاً عن المبادئ في مختلف العلوم... وعندما يجدون الشجاعة لكسر حاجز الفصحى - رغم محبتها لها - التي تربطنا، سواء أردنا أو لم نرد، بالنظام الحاكم، وتجعل منا جماعة من "الصفوة" الذين يقرأ الواحد منهم للآخر من دون أي تواصل مع العامة... وعندما ينجحون في إقناع الرأسماليين المصريين الأثرياء الطامحين بشمول مشاريعهم<sup>١</sup>.

وعندما يكونون على استعداد لمقاومة القمع الذي لن تتوانى الدولة بالتأكيد عن ممارسته عليهم...

عندما يمكننا القول إن شعاعاً من الثقافة قد بزغ فجره في مصر، ما يعني أننا بدأنا نقف على أقدامنا. لا علاقة لذلك كله بالشعار القائل "قل الحقيقة في مواجهة السلطة". تكمن مشكلة هذا الشعار في أنه يتجاهل حقيقة أن السلطة لن تعبر أبداً التفتاً إلى الحقيقة، وأن الشعب يعرف بالفعل تلك الحقيقة التي يصوغها بوضوح في نكاته، ورواياته الهزلية. يجب أن يتمثل الهدف من الكتابة في تقديم المادة التي يمكن الشعب بواسطتها أن يصوغ فهماً

١ أشير هنا إلى أدب سَيّاق خير مثال له ما قدمه طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٣٨)، وطبعاته العديدة)، وفيه يناقش كيف أن الثقافة في مصر إنما هي جزء لا يتجزأ من ثقافة البحر الأبيض المتوسط، ما يعني أنها لصيقة بالتراث اليوناني - الروماني، ما يمثل أمانة قابلة للجدل.

٢ أشير إلى الدور الذي قام به العمل الخيري في الثقافة الأميركية: المتاحف، ومعاهد الدراسات العليا، والفرق الموسيقية وسواها.



أكثر فاعلية لواقعه ووضعيته، بينما تقتصر غالبية المثقفين راهناً على تهكم راض عن ذاته مصوغ بلغة فصحي تجعلهم متواطئين مع المستبد. فلو أن أحداً مثل شاعرنا أدونيس - على سبيل المثال - استخدم اللغة الفصحى للتعبير عن غرض واقعي، لظل ما يكتبه، والحال هذه، نصاً ميتاً بسبب ذلك الحاجز ما بين الفصحى والعامية (أي لغة الشعب).

## الفصل الرابع

### الشعوب والكتاب<sup>١</sup>

”لا داعي لأن نتحلى في الأمور الإلهية، لأن  
التقاليد التي ورثناها عن آباءنا، وهي قديمة قدم  
الزمن، ليس هناك ما يمكن أن يحط من قدرها  
مهما تغنت العقول الأكثر ذكاء“.

أوريبيد

Les Bacchantes<sup>٢</sup>

”راهبات ممجيد باخوس في اليونانية القديمة“

ليست بجديدة تلك الأطروحة التي تذهب إلى أن اللغات العربية شائعة الاستخدام في مختلف الدول العربية، تمثل لغات يختلف في الآن عينه بعضها عن البعض الآخر، وعن عربية قريش، قبيلة النبي، التي نزل بها الوحي. ولقد دافع عن هذه الأطروحة في القرن الرابع عشر، ليس أقل من ابن خلدون، أكبر مفكر عربي، في مقدمته<sup>٣</sup>. لم يتفوق أحد غيره عليه في حسن شرح الفارق ما بين معرفة لغة بالولادة والنقل الشفهي، وبين معرفتها من خلال الدراسة والتعلم. تتيح الدراسة لأحدهم معرفة بنية لغة ما، إلا أن البنية ليست هي

١ نشرت صيغة أولى من هذا الفصل بمثابة مقدمة لطبعة ترجمتي لعطيل شكسبير بالعربية الدارجة (طبعة أنجلو، مصر 1998).

٢ ابن خلدون، خطاب حول التاريخ الكوني. للمقدمة. ترجمة من موتاي. سندباد، 1997.

اللغة. يمكن مقارنة من يتعلم لغة معينة بذلك الذي يمكن أن يقول شيئاً بصدد فن الحياطة، من دون أن يمتلك كفاءة الحياطة هو ذاته. يذهب ابن خلدون إلى القول إن هذا المتعلم لديه معرفة بملكة الكلام، ولكنه يفتقد هذه الملكة ذاتها. ولا يسعني إلا تبني أطروحة ابن خلدون، مؤكداً أن الفارق ما بين العربية المحكية - ويذهب تفكري خصوصاً إلى اللهجة المصرية - وعربية قريش أو القرآن هي بقدر الفارق نفسه ما بين الإيطالية واللاتينية. ومهما كانت الروابط الدلالية والتعبيرية العميقة ما بين الإيطالية واللاتينية، فإنه يتعين على متكلم الإيطالية تعلم اللاتينية كي يفهمها.

إذا قارنا المصرية المحكية بالعربية الفصحى، فسلاحظ أن المسند إليه يسبق الفاعل عموماً في الفصحى، بينما هو يعقبه في العامية المصرية، كما أن أدوات النفي والاستفهام ليست هي ذاتها، وهي تخضع لقواعد مختلفة على صعيد ترتيب الكلمات. كذلك هي الحال بالنسبة إلى أدوات الإشارة، تُصرف الأسماء في الفصحى، ولكنها لا تصرف في العامية المصرية، كما أن الفروق الصوتية ليست أقل أهمية. وعلى سبيل المثال، لا توجد الأحرف الاحتكاكية في العربية المحكية - سواء أكانت جهرية من مثل ذي The (بالإنكليزية) أم صامتة من مثل Th في كلمة Thing - ويسري الأمر ذاته على الحروف الصامتة الأخرى، كما يسري على المفردات. صحيح أن هناك عدداً كبيراً من الكلمات المشتركة ما بين العامية والفصحى، إلا أن معظمها قد تغير على مرّ القرون، سواء من خلال تغيير ترتيب الأحرف في الكلمة أو من خلال إسقاط بعضها أو إضافة بعضها الآخر، فضلاً عن تغيرات الدلالات والكلمات المؤكدة. ويضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من الكلمات المأخوذة من المصرية القديمة. وعلى سبيل المثال، يستعمل الفلاحون المصريون إلى الآن الأسماء القبطية للدلالة على أشهر السنة. كان هناك قبل الفتح العربي ثلاث لغات شائعة الاستخدام في مصر: اليونانية التي استمرت بمثابة لغة الإدارة بعد الغزو الروماني، وكل من اللاتينية والقبطية - وهي اللغة الأصلية. وأما في ما يخص الفاتحين العرب، فلم يكونوا كلهم من قريش، إذ إن العديد منهم، إن لم تكن غالبيتهم، كانوا ينتمون إلى قبائل أخرى تتكلم لهجات مختلفة. وهكذا يمكننا القول إنه تعين على المصريين أن يصيغوا مزيجهم الخاص من العربية التي لم تكن هي ذاتها بالضرورة لغة قريش. وانتهى الأمر بمعظمهم إلى التحدث بعرييتهم الخاصة، واعتنق معظمهم الإسلام لأسباب شتى، من ضمنها الإعفاء من الجزية التي كان يجب على كل

مسيحي راشد دفعها. وعندما أصدر عبد الملك بن مروان في عام ٧٠٥ م قراراً يفرض العربية لغة رسمية للإدارة، تعيّن على كثير من الأقباط تعلمها للحفاظ على وظائفهم. وهكذا جرى إعادة تفعيل التمييز بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية، الذي كان موجوداً في مصر منذ بداية تاريخها، لكن بصيغة جديدة.

لقد بدأت باستيعاب الدلالة السياسية لهذا الطلاق ما بين العربية الفصحى والعربية العامية، وكذلك الدور الحاسم الذي تؤديه الكتابة في تآزيل الاستبداد عندما قرأت رائعة أدونيس بعنوان الكتاب. إنه أحد الأعمال الأكثر ثورية مما تسنى لي قراءته في الأدب العربي. ففي معزل عن عنوانه الاستفزازي، فهو يعرّي حقيقة تاريخنا السياسي باعتباره يتمثل في سلسلة من الاغتيالات في الحركة على السلطة. إلا أنه مكتوب بأسلوب فائق الرقي، بحيث يمثل نصاً تعسر قراءته حتى بالنسبة إلى الأشخاص المثقفين، فضلاً عن الكلام على الغالبية العظمى من الشعب الأمي. ولهذا فليس من المستغرب أن يبقى الكتاب نصاً منسياً. والواقع أنني سمعت مرة أدونيس يقول إنه لن يكتب أبداً إلا بالعربية الفصحى، لأنه يحب الكتابة "بلغة ميتة". يمكن التساؤل عما إذا كان هذا الخيار يمثل كذلك طريقة للتعامل مع ما تعلمنا إياه ليو سترأوس في عمله بعنوان الاضطهاد وفن الكتابة<sup>١</sup>. أما السلطات فهي تسعد لجهلها بمثل هذه الكتب، لأنه في حالة ممكنها هي ذاتها من فهمها، مما هو بعيد الاحتمال، فإنها تعلم أن رسالة هذه الكتب لن تبلغ سوى عدد محدود من الأشخاص. تمت ترجمة الكتاب إلى كل من الإسبانية والسويدية. وظهرت ترجمة فرنسية له من قبل حورية عبد الأحد في أكتوبر ٢٠٠٧ في منشورات دار ساي.

هذا المثال من الكتابة بالعربية الفصحى هو ما دفعني منذ ذلك الحين إلى ترك الكتابة بالفصحى، والتحول إلى الكتابة بالعامية المصرية. وهكذا يتضح سبب اختياري ترجمة عطيل بالعامية المصرية: أي إتاحة الفرصة أمام الشعب لقراءة الكتاب الكبار باللغة التي يتعلمها في المهد، والتي يقضي حياته، منذ الميلاد حتى الممات، يتحدث بها.

الشعوب الحية مدينة بحياتها لكتابها، ليس فقط لأن الكتاب يوفرون لهم "الوعي بذواتهم". يعرف الناس - ويكفي أن تستمع إلى نكاتهم - كل ما يتعين معرفته بصدد شهوة السلطة، وطغيان الملوك، والتوزيع متفاوت للثروة والسلطة بين الطبقات، والزيف

الملازم لكل تمجيد<sup>١</sup>. إلا أنه إذا كانت الحقيقة تتعدى مسألة النكته، فإن كبار الكتاب سوف يشكون عندها ملاذها القوي، وكل من يضطلع بالحقيقة سوف يتحرر من الخوف من السلطة.

نحن حضارة اخترعت الكتابة منذ ما يزيد على خمسة آلاف عام<sup>٢</sup>، قامت الدولة باحتكارها جاعلة منها فناً باطنياً مقتصرأ على الكنية. وهو ما نتج منه أمية واسعة الانتشار، إذ إن نسبة فلاحينا الذين يستطيعون القراءة والكتابة لا تتجاوز عدد المواطنين الأثنيين في القرن الخامس قبل الميلاد.

ومن خلال كتابة الأفكار بلغة "عالية" إن لم تكن مقدسة، فلقد انتظمت هذه الأفكار بدورها بمثابة ميدان منفصل ليس للشعب من سبيل للوصول إليه. كان بإمكان الدولة أن تستبعد أي كاتب يتجرأ على معارضة النظام السائد، وكما كانت الحال بالنسبة إلى الكنية القدماء (من الفراعة)، فإن هؤلاء الكتاب لا يستطيعون العيش والبقاء إلا ضمن النظام القائم. وبالإمكان التساؤل عما إذا كانت الكتابة باللغة المخصصة للنخبة لا تمثل الفخ الأكبر الذي وقع فيه كتابنا - وهو فوق ذلك فخ نرجسي - إذ إنهم أصبحوا طبقة البراهما (قساوسة هندو) من دون لغة مشتركة مع الجماهرة "السوقية"<sup>٣</sup>.

من يمكنه أن يتصور مصير أوروبا لو بقيت اللاتينية لغة الأدب، العلم، الفلسفة، واللاهوت؟ تستحق نهاية هيمنة اللغة اللاتينية أن تدرس في هذا السياق. كان "المجانين"،

١ ويمكنني أن أضيف أنهم واعون تماماً للطابع التحريضي التخريبي للكتابة. خلال محادثة مع سائق تاكسي في القاهرة حكيت له نكته شائعة أيام ناصر - أي قبل أن يولد هذا السائق. إنها تحكي قصة شاب قبض عليه متلبساً بوضع ملصقات على الحائط. اقتيد إلى مخفر الشرطة، وبعد الاستجواب ووجهه بالملصقات. ولكن الشرطة فرجت بأن الملصقات ليست سوى أوراق بيضاء. عند هذا الحد من النكته، انفجر سائق التاكسي ضاحكاً "لقد سألوه أين أخفى الكتابة!" تعليق السائق هو نكته أكثر دلالة من القصة الحقيقية: "سأل البوليس الشاب المقبوض عليه ماذا كان يريد أن يقول، فأجاب الشاب بشكوى مبهمة تعني أنه لا يريد أن يقول شيئاً ويريد قول الكثير في آن معاً".

٢ المقصود هنا الكتابة المقطعية والأبجدية. في الواقع ليس هناك من مجتمع إنساني إلا يملك شكلاً ما من الكتابة. لم تنتظر الكتابة التحليل اللغوي كي تظهر، بل هي مهدت السبيل لهذا التحليل. انظر مصطفى

صفوان *L'inconscient et son scribe*, Paris, Le Seuil, 1982, cha.1.

٣ ليس هناك من كاتب عربي يمكن أن يكسب عيشه من مجرد بيع كتبه، إلا إذا تمت ترجمتها إلى لغات أجنبية. غالبية الكتاب يعملون في الصحف، دور النشر، ومؤسسات أخرى تابعة للدولة.

٤ أُلحِق هنا إلى مجنون ليلى، الشاعر الكبير قبل الإسلام، الذي أهدى عبقريته الشعرية إلى المرأة التي أحبها تبعاً لتقليد الحب العذري، الذي يعتبره بعض الكتاب بمثابة أحد مصادر الحب الغزلي. ولقد ألهم قصيدة "مجنون السا" لآرغون (١٩٦٤).

وتحديداً شعراء الغزل، هم أول من كتب في أوروبا بلغة لا تحتاج قواعد النحوية إلى الذهاب إلى المدرسة لفهمها. لقد ظهوروا في جنوب فرنسا حيث كانت هناك لغتان للكلام، وفي إيطاليا حيث كانت هناك العشرات من اللهجات المختلفة. ولقد حذا دانتى حذوهم. كان فرجيل هو معلمه المكرس الذي كان يعتبره بمثابة "أمير الشعراء". فلقد تحقق من أن أعظم الشعر، وهو بالنسبة إليه الشعر اليوناني واللاتيني، هو ذاك الذي كان يخضع لقواعد الفن الشعري، كما يقول بيرم<sup>١</sup>

آه أيها الفن، لو كنت تملك قواعد ونصوصاً  
لأصبحت كالنجوم اللامعة في السماء.

قرر أن يكتب باللغة العامية كتاباً حول الشعر، على غرار كتاب الفن الشعري لهوراس. كان عنوان الكتاب<sup>٢</sup> *De Vulgari eloquentia* الفصاحة السوقية. يبدأ بالتمييز بين لغة أولى عامة نتعلمها من دون أن نتعلم (بنحو نظامي)، من خلال محاكاة أمهاتنا، ولغة ثانية كان الرومان يدعونها "نحوية" (فصحى). ويضيف إلى هذا التمييز: "هاتان اللغتان، السوقية، والأكثر نبلاً"<sup>٣</sup>. تحتوي هذه الجملة، كما يعلمنا بوتاريل، "إعلان استقلال"، اللغات الأوروبية.

يعرض دانتى مبرراته: "لأنها (اللغة العامية) كانت الأولى التي استخدمها الجنس البشري، وأن العالم بأجمعه يتمتع بذلك، مع أن هذه اللغات تتوزع بين ما لا يحصى من أساليب اختيار الكلمات ونطقها، وكذلك لأنها طبيعية بالنسبة إلينا، بينما الثانية (الفصحى) هي بالأحرى نتائج الصنعة"<sup>٤</sup>. قدم هذه الملاحظات بصدد الإيطالية واللاتينية على وجه التحديد، إلا أن أفكار دانتى حول سياسة الكتابة لها صفة عالمية. ووصل به الأمر، بعد إعلانه البدئي لصالح اللغة العامية، إلى تحديد وظيفة اللغة الأولى:

وبالتالي، وحيث إن الإنسان ليس مدفوعاً بغريزة طبيعية بل بالعقل، وحيث إن العقل يتخذ العديد من الأشكال لدى كل فرد فيما يخص المعرفة والحكم والاختيار - بحيث

١ كان بيرم التونسي (١٨٦٣-١٩٤١) أول شاعر مصري حديث يكتب بالعامية. ولقد أطلق بذلك حركة مهمة ما زالت حية، بالرغم من تجاهلها من قبل النظام التربوي.

٢ Dante Alighieri, *De L'eloquence en langue vulgaire*, Trad. A. Dézard, in *Oeuvres Complètes*, Paris Gallimard, Bibliothèque de la pléiade, 1965.

٣ Ibid., 4..

٤ انظر: Dante Alighieri, *Vulgari Eloquentia*, ed. Et trad steven Botterill, Cambridge university press.

٥ Op. cit. 1.4.

إن كل فرد يبدو على الإجمال أنه يتمتع بخصائص جنسه - أنا أتيه إلى أن لا أحد يكتفي بفهم جاره من خلال أفعاله وأهوائه، كما يفعل الحيوان البري. وليس بوسعك كذلك أن ينفذ إلى الآخر من خلال التجلي فيه، كما بوسع الملاك، إذ إن الذهن الإنساني يصطدم خلال معرفته بكثافة ظل الجسد الفاني وقضاظته.

”وبالتالي أصبح من الواجب أن يمتلك الجنس البشري بعض الإشارات العقلانية والمحسوسة<sup>١</sup>، كي يوصل الأشياء المدركة من كائن إلى كائن آخر“<sup>٢</sup>.

من الواضح في هذا المقام أن ما يعبر عنه بكلمة ”عقلاني“ هو المعنى القابل للفهم (المدلول)، وبكلمة ”محسوس“ المعنى المدرك الذي يصوغه (الدال). وأما بصدد تاريخ اللغة، فيكتفي دانتى باستعادة تاريخ نمود، الذي دفع البشر إلى تشييد برج يجب أن يطول السماء. ومثل عقابهم في تدمير الإله للغتهم المشتركة وخلق بديلاً منها برج بابل مختلف اللغات.

بعد هذه المقدمات التمهيدية النظرية، يسأل دانتى أي لغة من بين الأربع عشرة لغة على الأقل، المستخدمة في إيطاليا، جديرة بأن تكون لغة الحكومة، أو بدقة أكثر تحديداً تكون اللغة التي بإمكانها أن توحد إيطاليا في غياب سلطة سياسية وحيدة - وهنا يصبح الهدف السياسي للكتابة أكثر وضوحاً، وليس مجرد الهدف الأدبي - ومن الجدير ذكره أن المحك الذي يتخذ لا يتمثل في جمال اللغة ولا في فائدتها، بل في قدرتها الشعرية. وتبعاً له، تتجاوز أصداء اللغة الشعرية وقوتها إلى حد بعيد مجال الشعر، وحتى كل مفهوم جمالي للغة، كي تتغلغل في توترات الحياة اليومية، بنزاعاتها والتباساتها. وانطلاقاً من ذلك، يقدم دانتى في القسم الثاني من الكتاب، وعلى مدى عدة صفحات، تحليلاً لسنياً ونقدياً أدبياً يشكل المثال الأول لدراسات كهذه للعصور الوسطى الأوروبية. إلا أن الكتاب يظل غير ناجز، حيث يتوقف في منتصف إحدى الجمل، مما يحتمل أن يرجع إلى إدراك دانتى أن المشكلة لا تقبل الحل من خلال المقارنات النظرية، وأن الأمر يستلزم مثلاً محسوساً. وهكذا حوّل جهوده نحو ”الكوميديا الإلهية“ التي ما زالت تعتبر بمثابة أعظم أثر شعري في تاريخ الأدب الأوروبي، وهو عمل كان له آثار حاسمة على اللغة الإيطالية كما نعرفها في أيامنا. أما إذا نظرنا إلى شرق أوروبا، وخصوصاً روسيا، فنرى أن الروس مدينون بهويتهم ليس

للدولة، ولا للأرض، ولا حتى للدين، بل أساساً لحلم بروسيا الذي صاغه كتابها الكبار وهم بوشكين، غوغول، دوستوفسكي وآخرون غيرهم كثير.

أفترض أن القارئ سوف يقول: إن المقارنة بيننا نحن العرب وبين الأوروبيين، تقلل من شأن كون العربية ليست لغة الأدب فقط، بل هي أيضاً لغة القرآن.

يتمثل الجواب على ذلك في القول بأنه إذا اكتسب القرآن شرف المكانة من كونه أساس الإسلام، فمن الصواب القول كذلك إن الإسلام اعتنقته أوطان كثيرة تتكلم لغات غير العربية، بينما العديد من الناطقين بالعربية هم من النصارى واليهود. في هذه الشروط لماذا يتعين أن يكون الإسلام مسؤولاً عن أنظمة سياسية موجودة منذ آلاف السنين قبل نزول الوحي على النبي محمد، وهي أنظمة لم تنتقل السلطة فيها أبداً بنحو سلمي، إذ في كل مرة يأتي حاكم إلى السلطة فإنه لا يغادرها أبداً قبل أن يموت أو يقتل؟ وفوق ذلك، وكما يوحى به المقتطف من أوريبيد (في تصدير الفصل) فإن الدين مغروس عميقاً في ضرورات الحياة الاجتماعية، بحيث يكون من غير اللائق أن يرتهن إلى نظام سياسي. بل على العكس، إن هذه الأنظمة السياسية هي التي تستغل الدين بمثابة مصدر لشرعيتها. كان لترجمتي عطيل إلى المصرية المحكية هدف يتمثل في تبيان امتلاك العربية المحكية، مثلها في ذلك مثل أي لغة حية، كل المقومات الضرورية التي تتيح أدباً رائعاً. اخترت شكسبير لأن عظمته لا تقبل النقاش. فإذا أمكنت ترجمته في لغتنا الأم التي توصف بازدراء بأنها "سوقية"، فسيقوم البرهان عندها على أن لغتنا الأم يمكنها أيضاً الوصول إلى "الرفعة". ولماذا عطيل تحديداً؟ لأن عطيل يتكلم وكأنه ينظر على الدوام في مرآة كي يتأكد من أن صورته تتمتع بكل ملامح الكمال التي تبهر النظر وتسّر الآخرين. يذكر عطيل سبب هذا الوجود المأخوذ بصورة مثالية كهذه حين يقول:

آه، يا لعنة الزواج!

أن نتمكن من القول بأن هذه المخلوقات الرقيقة تعود إلينا، بينما أنواع شهيتها ليست كذلك.<sup>١</sup>

١ أفكر في استخدامي كلمة مقومات، محوري اللغة اللذين ميز سوسير بينهما: المحور الأفقي والمحور العمودي. ولقد أطلق جاكربسون عليهما محور الاستدلال ومحور المزج، وبين كيف أن المجاز يمتد إلى الأول والثانية يمتد إلى الثاني.

٢ ولیم شکسپیر، عطیل، الفصل الثالث، المشهد الثالث ترجمة: J.N. Depnats, Paris, Gallimard, Bibliothèque



يفشي عطيل بذلك عجزه عن تفهم، أو قصوره عن تقبل، كون الرغبة هي مسألة عطاء: إنه لا يكفي بالحصول على رغبة ديمونة. ما يريده هو امتلاك هذه الرغبة بحيث لن تتمكن من استعادتها وتقليدها إلى شخص آخر، وكأن الأمر مسألة متاع من قبيل البيت، أو الحقل، أو البقرة، مما هو مستحيل بالتأكيد، إلا إذا تحولت ديمونة إلى أيقونة، أو تمثال، أو جثة هامدة؛ وفي الواقع، فإنه قتلها. الفارق بينه وبين إيباغو<sup>١</sup> هو أن هذا الأخير لا يخفي نزواته التدميرية، بينما تعلق عطيل بهوام كماله الذاتي، الذي كان يمكن أن يجعل منه شخصية مضحكة لولا ذلك، هو من القوة بحيث يوصله إلى القتل.

في الواقع، هذا الافتتان بالمثل الأعلى، الذي يتجاوز ما يمكن تسميته بالرغبة المشروعة لغواية الآخر، وبحيث تتحول إلى الرغبة في امتلاك رغبة الآخر بحد ذاتها، هي أبعد ما تكون عن كونها ظاهرة ضد الطبيعة. إنها تجد جذورها في الافتتان الذي يمارسه المجاز المسمى الأب الخيالي أو المثالي، عند فجر حياة الطفل، والتي تحدث في لحظة يظهر فيها الأب، ولو للحظة، بمثابة مساوٍ لاسمه، مما يتطلب حياة بأكملها كي تتلاشى في آثارها الواعية واللاواعية. ومن دون التوقف عند دقائق التمييز ما بين الأب المثالي ومثال الأب، أوّد ببساطة إحالة القارئ، على الوصف الذي يقدمه فرويد لما يسميه "التماهي الأولي"، أي تماهي الطفل بأبيه، والوارد في كتابه بعنوان سيكولوجية الجمهرة وتحليل الأنا، وكذلك إلى الفصل عن الأب المثالي في كتابي بعنوان دراسات في الأوديب<sup>٢</sup>. وليس هناك من شك في أن اختيار عطيل كنص لترجمته إلى لغتي الأم، كان في الآن عينه نتيجة لتجربتي في التحليل النفسي، ولاكتشافي المتأخر لمصر.

إننا نعيش نحن العرب، هذه الأيام، في مجتمعات حيث لا تتبع السلطة السياسية فيها، بالرغم من طابعها البشع، إرادة الغالبية، بل تتبع إرادة السلطان، ونفترض بالسلطان أن يجسد المثل الأعلى الأبوي. في الحقيقة ليس هناك ما يدعو إلى انتقاد المثل العليا، ما دام

de la pléiade 2002.

قامت مناظرة حول ترجمتي هذه في القاهرة. عثر بعض المتدخلين عن دهشتهم من أن شاعراً كبيراً كشكسبير يتحدث عن قضايا مارجنة بهذا القدر. ولقد رجح واحد منهم، ممن لا يوجد في نسخة المترجمة بالعربية الفصحى هذان البيتان، إلى النص الإنكليزي فدهش لورودهما.

١ إيباغو Iago هو جندي حامل علم عطيل ومتزوج من إيميليا، مدبرة ديمونة (زوجة عطيل) وهو يحمل حقداً ضده ولذلك أوقع بينه وبينها من خلال إيهامه بأنها تخونه. (المترجم)

٢ Paris, Le Seuil, 1974.

الذين يشيرون بها يذنون الجهد اللازم للارتقاء إلى مستواها. وهناك كذلك مثل عليا تستحق الثناء من مثل إتقان العمل، الاتزان في الكلام، الأحكام المنصفة حتى ولو كانت ضدنا ذاتنا إلخ... إلا أن كل هذه المتطلبات سرعان ما تنسى عندما تخضع السلطة السياسية لسلطان لا يمثل لأي قانون أو معاهدة، من مثل المعاهدة التي وقّعها الملك إدوارد في عام ١٢٩٧ والتي كوّنت أساس البرلمان البريطاني<sup>١</sup>. يعلمنا عطيل، في هذه المسرحية أكثر من أي مسرحية سواها، التخفيف من غلواء هذا الافتتان الطبيعي بالمثل العليا التي تلغي الفكر. وليس من النافلة ملاحظة أن ترجمة عطيل إلى العربية المحكية لم تطرح صعوبات تتجاوز تلك التي تصادف في ترجمة نص كهذا إلى أي لغة أخرى: من قبيل المجازات التي تفقد جمالها وتأثيرها لأن الكلمات المجازية لا تثير التداعيات ذاتها في ذهن قارئ النص المترجم، والالتفافات الذهنية القائمة على ازدواجية المعنى، والكنائيات التي تفقد دلالتها في سياق ثقافي مختلف، والفارق ما بين مبنى الجمل مما يتطلب صياغات مختلفة، والمضمرات التي يتعين الإفصاح عنها، والتعابير الاصطلاحية التي يتعين إعادة الشغل عليها بحيث تندرج ضمن الحساسية اللغوية للقارئ، إلخ. هناك بالتأكيد شيء ما لا يمكن أي ترجمة أن تعيد إنتاجه، وهو موسيقى عطيل، كما سمّاها أحد النقاد، لأن هذه الموسيقى تنبع من جرسية اللغة الإنكليزية ذاتها. لقد بذلت جهدي في أن أخرج بترجمة يمكن سماعها كما يمكن قراءتها<sup>٢</sup>، وأمل في السعي إلى بلوغ الإتقان أن أرى آخرين يقدمون ترجمات أفضل من ترجمتي هذه. تكمن الصعوبة الرئيسة بالنسبة إلى المترجم في أنه لا توجد كلمتان في لغتين مختلفتين تحملان الدلالة ذاتها بالضبط. وكما يلاحظه ريتشارد، فإن استخدام أي

١ إنّه أول تأكيد للمغاناكارتا (ميثاق الحريات الذي فرضه البارونات على ملك بريطانيا للحد من هيمنة سلطانه وتنظيمها) من قبل الملك إدوارد. في الواقع يتلخص تاريخ أوروبا في سلسلة من الميثاق والمعااهدات التي أدت إلى توزيع السلطة ما بين الدولة والكنيسة، وبين البابوات والملوك والأباطرة، وبين الملوك والبرلمانات، أو بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. يكمن سر قوة أوروبا في تقسيم السلطات بين مختلف تيارات المجتمع السياسي، بدلاً من احتكار السلطة القائم على خلط رهيب ومنافق ما بين المجتمع السياسي، بما هو كذلك، وبين الجماعة، والتي تدل في المقام الأول على جماعة المؤمنين التي توجد في الجامع. ينتج من هذا الخلط أن تعامل الاختلافات في الرأي بمثابة اختلافات في الإيمان، بحيث يعتبر من ينادون بالاختلاف في الرأي بمثابة خوارج يتعين القضاء عليهم.

٢ عرضت المسرحية في مدينة مصرية، المنصورة، كما الممثلون، مدرّبين بعمق على التمثيل بالعربية الفصحى، بحيث لم يشعروا بالارتياح في التمثيل بلغتهم الأم، وكان يمكن أن يكون التأثير مختلفاً على الأغلب لو أنهم مثلوا مسرحية كوميدية: حيث تقدم المسرحيات الكوميدية باللغة الشعبية عادة.

لفظة، بدءاً من أَل التعريف وصولاً إلى اسم العلم، يعيىء النظام اللغوي بكامله مع مترباته الدلالية التي تعطي للكلمة صداها الفريد، ووزنها النوعي<sup>١</sup>، وخصوصاً في مجال الشعر. وقد يكون من الأكثر أهمية أيضاً الإشارة، كما يؤكد عليه إيف بونغوا في كتابه الأخير عن شكسبير ويتس، إلى أن كل لغة تحمل في طياتها فلسفة معينة، يفترضها الكلام مسبقاً من دون التصريح عنها. وعلى سبيل المثال، تتوجه اللغة الفرنسية نحو العالمي أولاً، ومن ثم نحو الخاص الذي يعتبر بمثابة مثال على العالمي وبرهان عليه.

ولهذا فإن الصراعات الدرامية، من مثل مسرحيات راسين، يتعين أن تكون صراعات عقلانية، ما بين الحب والواجب، وبين خيانة طاغية وخيانة صديق، بينما في الإنجليزية يأتي الفرد، على العكس، في المقام الأول: فمن خلال الصراع غير المفهوم الذي قد يقع فرد ما ضحية له، من مثل حيرة هاملت وتردده، يمكننا تلمس بعض ملامح القوانين الكونية. وهكذا، فترجمة شكسبير إلى الفرنسية يجب ألا تفرنسه. نحن هنا على العكس، بصدد معركة نخوضها بحيث نجعل الفرنسية تتمكن من التعبير عن فلسفة مختلفة. الملاحظة ذاتها تنطبق على الترجمة إلى العربية. لم أسمع أبداً أحداً يتكلم عن الفلسفة الضمنية للغة العربية، لكن يمكنني القول إن الكلام بالعربية يدخل المتكلم في عالم منتظم بنحو جيد حيث كل شيء في مكانه، وحيث كل من الكائن الفردي والكون عموماً محمي من التغيير<sup>٢</sup>. تلك فلسفة يمكن الواقع أن يفندها آلاف المرات من دون التمكن من الإجهاز عليها، لأنها تكون المقدمات الضمنية للاتصال. يجب ألا تنقاد الترجمة إلى العربية إلى مثل أعلى تعريبي مزعوم، بل على العكس، يتمثل فعل الترجمة في استعمال اللغة كي نتحرر من الحدود التي تفرضها علينا.

١ Ivor A. Richards, *The philosophy of Rhetoric*, New York, Oxford University press, 1936.

٢ بين سلام الكندي في كتابه عن الشعر قبل الإسلام بعنوان المسافر يدون مشرق: شعر وفلسفة العرب في عصر ما قبل الإسلام، باريس، سندباد، ١٩٩٨، بين أن الشعور الوجودي الذي يلهم هذا الشعر يتمثل بالأحرى في ما هو زائل وغابر. وإذا كان ما أقوله حقيقياً، فإن ذلك يعني أن الفلسفة الجوانية للغة العربية تغيرت كلياً منذ أن أصبحت لغة الدولة والإدارة.

## الفصل الخامس

### دور اللغة في تكوين الثقافة<sup>١</sup>

ورد في أحد الأقوال المأثورة الذي طالما اقتبس هيدغر: "اللغة هي بيت الكائن. في هذا البيت يسكن الإنسان (يقيم)". ولقد عَقِبَ أحد الطرفاء على ذلك قائلاً إنه لو كان الأمر كذلك، لكانت أزمة المساكن قد حلت. ولكن إذا تركنا الدعابة جانباً، فليس من الصحيح فقط أن الإنسان يسكن اللغة، بل هو معجون فيها.

تحمل كلمة "تكوين" الواردة في العنوان معنيين، أي كلاً من: الشيء الذي يُخلق وفعل الخلق ذاته. لا يوجد شيء في أي ثقافة كانت إلا يعود الفضل في وجوده إلى اللغة أو لا يدرك إلا بتوسط اللغة. تدين كل من المعتقدات والعادات، والأساطير، والأشعار، والشتائم، والعهود والمواثيق والدساتير، والنواهي والقوانين إلخ، بوجودها إلى اللغة. وأما بصدد الأشياء التي تدرك بفضل توسط اللغة، فيمكنني القول بأن النظرية التي تذهب إلى أن هذه الأشياء وجدت قبلاً بذاتها، بانتظار أن يقوم إنسان أول بتسميتها، لا تتحقق إلا في الملاحم الكونية أو في الأساطير الدينية، أي من جديد في اللغة. والواقع أنه لم يوجد أي إنسان خارج عالم تكون الأشياء فيه مسماة ومصنفة إلى أنواع وأجناس بنحو مسبق، سواء كانت ملموسة - من مثل المعادن والنباتات أو الحيوانات - أم غير ملموسة - من مثل الجهات الأربع أو الفضائل والذائل. تتباين هذه التصنيفات من ثقافة إلى أخرى، أي من لغة إلى أخرى، حتى في تلك المجالات التي يمكن أن يبدو فيها الإحساس أنه يفرض

١ قدمت صيغة أولى من هذا الفصل في عام ١٩٩٨ بمناسبة محاضرة في كلية الآداب جامعة المنصورة، حيث دُعيت من قبل قسم علم النفس.

التصنيف - كما هي الحال بالنسبة إلى تصنيف الألوان على سبيل المثال. وباختصار، فإنه بفضل اللغة يوجد الفكر في الواقع، كما يوجد الواقع في الفكر.

وأكثر من ذلك، يتلقى كل فرد اسماً عند الميلاد، يجري اختياره عموماً قبل أن يوضع في مهده. ترتب هذه التسمية عدداً من الالتزامات تسبق كل خيار شخصي: التزامات أسرية ودينية إضافة إلى الالتزامات تجاه طبقة الاجتماعية، قبيلته أو وطنه. تعطي هذه الالتزامات الفرد هويته، فتحدد حضوره لذاته وللآخرين، وتجعل منه ذاتاً مسؤولة، كما توجه مصيره. إلا أنه على الرغم من وزن هذه التماهيات الأولية، يعني ميلاد الفرد - على الأقل على مستوى مبدئي، وحتى لو لم تَمَهِ هو ذاته بهذه التماهيات الأولية بحيث يصبح كلياً سجيناً لها - ميلاد نظرة جديدة، وإمكانية جديدة لتقدير الثقافة التي تلقاها، وصولاً إلى احتمال تطويرها. يتعين علينا هنا أن نتكلم عن الإبداع الثقافي. بمثابة فعل توارث ثقافي لا يمكن أن يقوم إلا بفضل اللغة. مِمِّزنا في الفصل الثالث ما بين توارث آسن من مثل توارث أساليب الزراعة والري في مصر والتي لم تتغير طوال قرون عديدة، والتوارث الخلاق الذي بزغ فجره مع ظهوره طبقة من "المثقفين" في القرن الثاني عشر، في أوروبا. يتوقف الأمر كله على سياسة التربية والمنهجيات.

ولهذا السبب فإن قرارى بترجمة عطيل إلى العامية المصرية لا علاقة له بتفضيل شخصي. ذلك أنني، مثلي في ذلك مثل كل الآخرين، قد ترعرعت في مناخ حب اللغة العربية الفصحى، وحتى تبجيلها. كانت تعني القراءة والكتابة الدخول في عالم مبدع، مليء بالمجد، أعني مجد الماضي بكل تاريخه، وهو تاريخ مليء بالافتخار بالمرور. إلا أنه مهما كانت تربية شخص ما أو انتماءه، فليس هناك أي مرر لتفضيل لغة على أخرى، فيما إذا اعتبرنا اللغة من وجهة نظر الشعب الذي يتكلمها، أو من وجهة نظر بنيتها الداخلية.

فلنتصور مبدئياً فكرة لا توجد لها كلمات للتعبير عنها في لغة معينة، وقد تمت هذه الفكرة إلى أي مجال: ديني من مثل التضحية والخطبة، أو اقتصادي من قبيل الأجر والسعر، أو علمي من مثل العطالة والجاذبية، أو فلسفية من قبيل الوجود والجوهر... من الواضح بالنسبة إلى من يستعملون هذه اللغة أن هذه الفكرة التي لا اسم لها لن تشكل محتوى أي تعاليم أو نواة، ولن تمثل هدف أي فعل، كما لن تكون موضوع أي تأمل أو تفكير. وبتعبير آخر، سيمر الأمر من دون أن يحس أي كان بافتقار هذه الفكرة غير المعينة باسم،

أو بالحاجة إليها. ولهذا السبب، وكما لاحظته سوسير، فإن كل مجتمع راضٍ بلغته الخاصة، ولهذا السبب كذلك فشل مشروع خلق لغة عالمية "عقلانية" من مثل لغة الإسبرنتو. اللغة هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرضي الإنسان كلياً.

ومن ناحية ثانية، نحن نعلم بصدد البنى الداخلية للغة، منذ سوسير، أن كل لغة مبنية تبعاً لبعدين، الأول هو نظام الترتيب اللغوي، syntagmatique (تسلسل الكلمات في الجملة)، والثاني هو نظام الصيغ العرفية padignatique. الأول الذي يمكن القول بأنه أفقي، هو البعد الذي تترابط فيه الكلمات لتكوين الجمل. وفي هذا البعد أيضاً تستدعي كلمة معينة كلمة أخرى بفضل الروابط ما بين الدلالات المرسلات أو المستقبلات. ذلك هو البعد الذي سماه جاكوبسون محور الترابط، والذي يطلق عليه كذلك محور الكناية. والمثال على ذلك الذي تعلمناه في سن الصبا هو الكناية: "كثير الرماد" للدلالة على الكرم، حيث إن الكريم في حياة الصحراء لديه دوماً نار متقدة في منزله، ما يخلف الكثير من الرماد. يبين هذا المثال بوضوح كيف أن كناية معينة في ثقافة ما يمكن أن تفقد كل دلالة في ثقافة أخرى. وإذا نظرنا في كتب البلاغة الغربية، فإن المثال الأول عن الكناية هو "ثلاثون شراعاً" للدلالة على "ثلاثين سفينة". وهو ما يبين بجلاء أن هذا الارتباط هو في المقام الأول ارتباط بين كلمات، حيث إن كل سفينة لها في الواقع أكثر من شراع، كما لاحظته لاكان.

أما في ما يخص البعد الثاني الذي سماه جاكوبسون محور الإبدالات أو الاختيار، فإنه يمثل الصيغة التي تدرج فيها كل كلمة في وضعية عمودية، إذا جاز القول. إنه البعد الذي نختار فيه كلمة تمثل المعنى المقصود، مع أن اللغة توفر دوماً إمكان تجاوز القصد. ذاك هو، كما بينه جاكوبسون، محور المجاز. المثال الكلاسيكي على ذلك، منذ أرسطو هو: "مساء الحياة" للدلالة على "الشيخوخة". وبعيداً من التعبير عن الشيء ذاته بواسطة كلمات أخرى، فإن "مساء الحياة" يمكن أن يشير إلى الدلالة المتبسة "للشيخوخة" تبعاً لذهاب تفكيرك إما إلى ظلمات المساء أو إلى سكينته.

يميز هذان البعدان اللغة. كل لغة فيها متسع للتخييل الشعاري وللکلمة المناسبة، سواء بالنسبة إلى الدلالات المترجمة، أو بالنسبة إلى الخطاب الشائع. ليس هناك من لغة سوقية ولغة نبيلة، فالفصاحة والسوقية كلاهما ممكن في كل اللغات.

صحيح أن دانتى مَيّر ما بين "اللغة الفصحى" التي يجري تعلمها في المدرسة واللغة

الشعبية التي يجري تعلمها على ثدي الأم، إلا أنه أكد أن الثانية (الشعبية) هي الأفضل. ونظراً إلى ألفته مع أرسطو<sup>١</sup>، فإنه سيوافق بالتأكيد على الفكرة التي تذهب إلى أن كل لغة يجري تعلمها من خلال "استعداد طبيعي" نظراً إلى خاصية وضوح نطق الصوت الإنساني، وأنها قابلة للتحويل إلى أحرف الأبجدية (Engrammatos) (تتحول إلى خصائص ثابتة)، فالكتابة ليست تقنية تضاف من الخارج إلى اللغة، بل هي أحد أبعادها الأصلية. لا ينصبّ جدل دانتى على اللغات، بل هو ينصب على سياسة الكتابة، وعلى تلك السياسة الفاسدة التي كانت تهدف على الدوام إلى تسلط الكنيسة السياسي.

في الواقع، إن مبرر اختياري ترجمة عطيل باللغة المصرية الدارجة يحيل على السؤال الآتي: لماذا تتهقرت الثقافة العربية إلى الدرجة التي لم تعد تسهم فيها إلا قليلاً في الحياة المعاصرة (باستثناء حضور خجول على الصعيد الأدبي)، بينما الثقافة الغربية غت وتطورت بحيث اخترقت بقية الثقافات وأجبرت الكل على التكيف مع الغرب إذا ما أراد البقاء؟ يتمتع الاستنتاج الذي توصلت إليه، إذا جاز لي القول، بميزة البرهان التاريخي عليه.

كتب ألكسي دي توكفيل، في أواسط القرن التاسع عشر، كتاباً تُرجم إلى العديد من اللغات، باستثناء العربية، ما يمثل دليلاً مؤمناً على تأخرنا. توصل توكفيل في هذا الكتاب المعنون بـ "حول الديمقراطية في أميركا" إلى الاستنتاج القائل بأن مستقبل العالم سوف يتوقف على الصراع بين جبارين: روسيا وأميركا. ولم يكن لديه أدنى شك في أن أميركا ستنتصر في هذا الصراع بفضل قوة نظامها السياسي. قبل الحديث عن هذا النظام، فلننظر بعجالة في الشيوعية.

تمثل مشروع الشيوعية السياسي في إنجاز انتصار البروليتاريا التاريخي الموعد، الذي هو بمثابة تمهيد لقيام المساواة الكاملة والعدالة الاجتماعية. ولقد اتضح أن هذا المجتمع الذي لا يتضمن سوى طبقة واحدة، كان في الواقع نظام الحزب الواحد الذي يرأسه "أمين عام" يقرر ما هي الحقيقة وما هو الخطأ، حتى في قضايا علمية من مثل الألسنية والبيولوجيا، فضلاً عن أعمال ماركس وإنجلز. وإذا جاز لنا أن نعتبر تيوقراطية [الحكم الإلهي الذي يشرف عليه رجال الدين] أي نظام سياسي يرجع إلى نص لا يمكن تفسيره إلا من قبل سلطة

١ انظر: Lorenzo mini-Palaello: *Dante's Reading of Aristotele in the World of Dante: Essays on Dante and*

*his Times* ed. Cecil Grayson, Oxford, Clarendon press, 1980.

واحدة، مؤكداً لك بأنه يكفيك أن تقتحه كي تجذ فيه كل الحقيقة، عندها يمكن اعتبار الاتحاد السياسي "حكماً إلهياً - زمنياً". يتمثل كتابه المقدس في البيان الشيوعي لما ركس وإنجلز الذي يحتكر ستالين حق تفسيره.

هزيمة نظام كهذا كانت متوقعة لأنه نتاج مثالية يتعين تحديدها بمشابة جنون، بمعنى فقدان الصلة بالواقع، حيث تبني نهاية كل الفروق وتحويل المجتمع إلى مجرد جماعة من المؤمنين، بمشابة غاية له. من المستحيل إزالة كل الفروق بين البشر، إذ ليس هناك من مبادئ أو محكات كونية بالإمكان استخدامها لحل كل المشكلات. وهو ما ينطبق على العلوم المجردة ذاتها. هناك أكثر من منطق، تبعاً لما إذا كنت تقبل مبدأ الثالث المرفوع [أي لا وجود لوسط ما بين الوجود واللاوجود] أو كنت ترفضه. وهناك أكثر من علم هندسة تبعاً لما إذا كنت تقبل المسلمة القائلة بأن الخططين المتوازيين لا يلتقيان أو كنت ترفضها. كذلك هي الحال بالنسبة إلى المشكلات السياسية والاجتماعية: هل يجب إعلان الحرب على دولة أخرى باسم حقوق الإنسان أم يتعين احترام الاتفاقيات المكتوبة في المعاهدات؟ وهل نخضع لدولة أخرى أكثر قوة وثراء منا لتأمين رفاه نسبي، أم يتعين أن نبقي أمناء على مبدأ الاستقلال ورفض الخضوع، مهما كان الثمن؟ لا يمكن اعتبار هذه الخيارات المختلفة بمعزل عن فوارق المصالح ضمن مجتمع معين. ذلك أنه لا يوجد أي مجتمع إنساني لا يحمل في تكوينه بذور الفرقة، أي إمكان حرب أهلية. يتمثل الثمن الذي يتعين دفعه للوصول إلى تجانس لا يترك حيزاً للآخرين، في معسكر الاعتقال. صحيح أن النظام السياسي وفر سكناً لكل مواطن، إلا أن كل من هم خارج الحزب كانوا يشعرون بأن حياتهم كانت تتوقف على الراتب الذي تعطيهم إياه الدولة، وليس على نشاطهم الخاص، مما كما كانت سلامتهم تتوقف على صمتهم. ولذلك لم يكن هناك أي تضامن ما بين الغالبية الواسعة من المواطنين وبين الدولة، أي بين المحكومين والحاكمين، كما اتضح جلياً عندما انهار النظام. ولم يعد هناك أي فائدة من الستار الحديدي الذي كان من المفترض أن يحمي الشعب من أكاذيب الرأسمالية ودعايتها السياسية، بعد اختراع الترانزستور الذي يتيح لكل فرد أن يشتري راديو جيب، ويستمتع إلى الأخبار الآتية من كل أجزاء العالم. حدث لي أن قابلت فلاحاً مصرياً كان لديه راديو صغير يعلقه على سكة فلاحته ويستمتع إلى الأخبار. وعندما سألته عما يستمتع إليه، أجابني: أستمع إلى صوت أميركا.



ولماذا تستمع إلى صوت أميركا (سألت)؟  
لأنهم يقولون الحقيقة (أجاب).

لأنهم يقولون عكس ما يقال هنا، لأن الإعلاميين هنا كذابون.  
أتصور أن الأمر كان هو ذاته بالنسبة إلى الفلاحين الروس، أو بالنسبة إلى أولئك الذين  
نجوا منهم من التدجين الجماعي التعسفي.

في الواقع، كانت الدولة السوفياتية نوعاً من تكرار تلك الدول القديمة، من مثل دول  
وادي النيل الفرعونية، مما هو أبعد ما يكون عن تكوين ظاهرة جديدة كلياً.

ترك الوادي كان يعني فقدان أي إمكان للحياة، بينما البقاء في الوادي كان يعني الحصول  
على الماء الضروري. وبالتالي، تبعاً للنظرية المتعارف عليها، كان من الضروري بغية تجنب  
الحرب الشاملة من أجل هذا المورد الحيوي، اللجوء إلى طرف ثالث، أي زعيم أو حكومة  
قادرة على تأمين الحق بالماء، وتمتلك حق استخدام العنف كي تفرض قوانينها، إذا لزم الأمر.  
يبدو أن نظرية هوبز تنطبق في هذا المقام: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان. وهو ما يعني أن  
الناس لا يمكنهم العيش معاً إلا إذا تخلى كل فرد عن إرادته الخاصة وخضع لطرف ثالث.  
إن فكرة عقد لا يمكن فسخه ينقل كل شخص بموجبه سلطته إلى الحاكم تجعل من الشعب  
المصدر النهائي للشرعية. لم تؤد هذه الفكرة، في الواقع، أي دور في نشأة الدول البدائية.  
تتمثل الخاصية الأولى لهذه الدول في أن الحاكم يحوز سلطته وشرعيته ليس من الدستور  
ومن الشعب، بل في نهاية المطاف من الدين باعتباره الناظم لما يمكن أن أسميه الاعتقاد  
"الطبيعي" بنظام المقدس، وهو ما يسهل تبينه في جمهورياتنا الحالية حيث الرؤساء لا  
يعزلون.

أما الخاصية الثانية فهي عدم اقتسام السلطة. فلا يقبل الحاكم أي منافس، إذ تعتبر أي  
معارضة بمثابة الانتقاص، ليس من سلطته فقط، بل من كيانه ذاته أيضاً.

وتتمثل الخاصية الثالثة في غياب أي ضبط حقيقي لسلطة الحاكم، وبالتالي غياب كل  
سلطة للقانون أو للمجتمع المدني.

وأما رابعة الخصائص فتتمثل في أن المهمة الأولى للحاكم، حتى قبل تلك المتصلة بالدفاع،  
أو الاقتصاد أو الاستقلال الوطني، هي في ضمان "الاستقرار"، أي ضمان استمرار حكمه.  
عندما يصل رئيس إلى السلطة في أيامنا، سواء من خلال انقلاب كما كانت الحال مع ناصر،

أو بعد موت أو اغتيال سلفه، كما كانت الحال مع كل من السادات ومبارك، فإنه يجدد سلطته من خلال قشرة حدائه وبناتخابات يفوز فيها بـ ٩٩% من الأصوات. إلا أن لهذه الدول البدائية الحدائية في الواقع، نوعاً من الوجود مماثل لوجود السيد فالديمار، في حكاية إدغار آلان بو، والذي يموت تحت تأثير التنويم المغناطيسي، محتفظاً بمظهر الحياة ما ظل منوماً مغناطيسياً. إنهم ينهارون عند أول نفخة.

تصدر قوة أميركا عن مؤسساتها. قرأ الآباء المؤسسون: رجال من مثل جيمس ماديسون، جون آدمز، توماس جيفرسون، وجيمس ولسون، أفضل كتابات المحللين السياسيين الأوروبيين في القرن الثامن عشر وأكثرها تقدماً، من مثل مقالة لوك حول التفاهم الإنساني، ودراسته في الحكومة، ومؤلفات آدم سميث بعنوان: بحث حول طبيعة وأسباب ثراء الأوطان، ونظرية المشاعر الأخلاقية، وكذلك مؤلف روح القوانين لمونتسكيو. لم يقتصروا على قراءة هذه الأعمال بعناية كبيرة فقط، بل قرأوها بوصفهم سياسيين محنكين. ولم يكن طموحهم، كما شرحه توكفيل، أن يغيروا الطبيعة الإنسانية، بل تمثل في إتاحة الفرصة للناس كي يغيروا الطبيعة لصالحهم. كانوا يعرفون أن الطبيعة الإنسانية طموحة جداً، جشعة وسيئة النيات، إلا أنهم كانوا يعتقدون أيضاً أن الناس طيبون بما يكفي كي يتمكنوا من إدارة أنفسهم. كان أكثر الأشياء صعوبة تبعاً لماديسون، في إقامة "حكومة تحكم الناس بواسطة الناس"، هو إيجاد آليات لضبط الذين يحكمون، على غرار وجود الآليات التي تضبط المحكومين. وهو ما ألهم إعلان الاستقلال في الرابع من تموز/يوليو ١٧٧٦، وكذلك الدستور الذي فكروا في أنه يتعين أن يوليه الوطن الحب والتبجيل للذين بدونهما لا يمكن أن تحظى أكثر الحكومات حكمة وتمسكاً بالحرية بالاستقرار المطلوب. أتاح الالتزام بنظام جمهوري محدود ومضبوط بواسطة القانون وبدستور مكتوب ويحظى بالاحترام، وخصوصاً الإيمان الذي لا يتزعزع بالطابع المقدس للحرية الفردية، أتاح كل ذلك للآباء المؤسسين وضع الدستور الأكثر دواماً في العالم. إذا أخذنا وطناً أوروبياً من مثل بريطانيا العظمى، فإننا نرى أن تاريخاً طويلاً من القتال ضد الحكومة أوصل الشعب إلى عدم التخلي عن الحذر والشك تجاهها، بينما الأمر كان الذين لم يعيشوا تاريخاً مماثلاً، لهم كل الثقة في حكومتهم. هذا الرباط المتين الذي يوحد ما بين الوطن والدولة كان غائباً كلياً في النظام السوفياتي.

تأثير كتاب القرن الثامن عشر على الآباء المؤسسين هو دليل إضافي على أهمية الكتاب في تكوين الأوطان، وحتى في خلقها، وهي أهمية ما كان لهم مطلقاً أن يحظوا بها لو لم يكتبوا بلغة في متناول الجميع - ما لا يعني أن الجميع قرأوها. وبهذا الصدد، فإن مونتسكيو، وهو واحد من أكثر محلي المؤسسات السياسية تبصراً، كان وريث دي بالي، ذلك الشاعر، الذي أدخل مبدأ النزعة الإنسانية في الألسنية في فرنسا، من خلال كتابة الموسوم الدفاع عن اللغة الفرنسية وإيضاحها، كما سبقه دانتي إلى ذلك في إيطاليا.

هناك اعتقاد واسع الانتشار يذهب إلى أن هذا المبدأ لا يمكن تطبيقه على لغة القرآن العربية التي هي لغة الله. إلا أن هذا الاعتقاد خاطئ بالتأكيد، حتى ليتمكني القول بأنه من الكفر أن نعتّم قصور الكائنات البشرية على الإله. من الواضح أنه من خلال اختيار نبيه، اختار الله اللغة التي أراد إرسال رسالته بواسطتها. لقد تكلم العبرية مع إبراهيم وموسى، وتكلم العربية مع آخر أنبيائه، ولكن لم يخترها لأنه يتكلم العربية. هذا الاختيار للغة هو أمر ثانوي. وأما بصدد اختيار أنبيائه، فيمكننا الافتراض، مع عدم علمنا ما إذا كانت أفعال الإله مدفوعة بمثل دوافعنا، أنه يختار الرجال ذوي الإيمان الأكبر الذي لا يتزعزع به. وإذا ما أخذنا في الاعتبار كيفية مراعاة الإله لأوجه قصور الطبيعة البشرية، وأن اللهجات العربية التي يتم الكلام بها في كل من الرباط والقاهرة تختلف عن اللهجات الأخرى وعن لغة قريش، لنعيّن علينا ترجمة القرآن إلى هذه اللهجات المختلفة.

يحب المثقفون العرب تكرار القول بأن اللغة العربية المحكية لا تلائم أي عمل يسهم في الفكر والثقافة. يعكس هذه الحجة افتتانهم باللغة الفصحى أساساً. دليلي على ذلك أن الصعوبات التي واجهتني في ترجمة عطيل إلى العربية المحكية لم تكن أكثر أو أقل من تلك التي واجهتني في ترجمة فرويد أو هيجل إلى العربية الفصحى<sup>١</sup>. لقد سبق لي الحديث عن كيفية ترجمة عطيل. أود فقط أن أضيف هنا أن تلك الصعوبات لم تكن فقط في المفردات والأسلوب، بل في تركيب الجملة كذلك. التركيب النحوي للجملة في العربية المحكية هو من دون أدنى شك أبسط مما هو عليه في العربية الفصحى. إلا أن هذه البساطة ليست

١ قمت بترجمة القسم عن الوعي في ظواهرية الروح لهيجل. ولقد ثابني عن السير قدماً في هذا المشروع ما لقيته من صعوبات في العثور على ناشر، والغياب التام لتجاوب النخبة الفكرية العربية، وهرال المبيعات. أما تفسير الأحلام لفرويد، مع أنه لم يحظ بأي تعليق من النقاد، فلقد مثل على العكس، نجاحاً كبيراً. وحسب علمي، فإنه ما زال يباع بعد ما يقرب من نصف قرن من نشره لأول مرة في عام ١٩٥٩.

بحال مرادفة لأي قصور في اللغة المحكية. في الواقع، إن العربية المحكية أكثر ملائمة بما لا يقاس من العربية الفصحى، بالنسبة لأي ترجمة تنسم بالجدية.

وأخيراً، تتمثل الحجة الثالثة، التي يتوافق عليها الجميع، في أن العربية الفصحى هي اللغة التي تجمعا كأمة عربية. يتعين على المدافعين عن هذه الحجة الاعتراف بأن هناك مستوى أكبر من التوافق ما بين البلاد الأوروبية من ذاك الذي تمكنت الدول العربية من تحقيقه في ما بينها في أي مرحلة من تاريخها. فالمستبدون ليسوا أبداً على اتفاق. ولو أننا ترجمنا في لغتنا الأم المتنوعة، فقد يجعل ذلك ممكناً لنا أن نتوصل إلى مزيد من فهم أنفسنا وفهم الآخرين<sup>١</sup>.

هناك مفهومان متعارضان للترجمة. يتمثل هدف الترجمة في المفهوم الأول في استيعاب النص ضمن الثقافة الخاصة التي يترجم إليها، أو كما يقول المجاز الشائع، في هضمها للنص. أنا في المفهوم الثاني، فيتعين على العكس تطويع "ذهنيتنا" للفكر الغريب الذي يمت إليه النص موضع الترجمة. الترجمة التي تحصل تبعاً للخيار الأول - ويطلق عليها تسمية التعريب إذا كانت إلى العربية، والفرنسة Gallicisation إذا كانت إلى الفرنسية - هي ترجمة صماء، ويجدر ألا نقوم بها إلا إذا كانت ستخدم تعزيز أفكارنا المسبقة، إذ إنها لا تتيح أي وصول إلى الجديد الذي يحمله فكر مختلف عن فكرنا. تفترض كل لغة مسبقاً عدداً من المفاهيم التي تنبث في كل تواصل. وكلما تعاضم التبجيل الذي يُعطى للغة معينة، تشتد ضوابط مفاهيمها المسبقة على الفكر بدرجة أكبر، ما يجعل من الأصعب مساءلتها. وبسبب مرونتها، فإن اللغة المحكية تجعل من الأسهل الوصول إلى مقولات ثقافة أخرى، وتيسر بالتالي التعاير المستجدة، مما هو ضروري أحياناً (في الترجمة الآلية لروح النص). تُعدّ إنكليزية شكسبير مثلاً جيداً على ذلك، حيث تنحت على الدوام كلمات جديدة للتعبير عن أفكار جديدة، وذلك بواسطة لغة لم تقن بعد.

١ يحتمل أنه بسبب العزلة الجغرافية التي أوجدتها الصحارى في شرقي النيل وغريبه، أصبح لدى المصريين وعي مغرط بكيانهم كمصريين، كي لا أقول إنه أصبح لديهم اقتتان مبالغ فيه بأنفسهم، ما يحول دونهم والتماهي بدائرة أوسع. كان ناصر أول من أطلق الدعوة إلى وطن عربي. ولقد لاقت دعوته استجابة عريضة وبالغة الحماسة، ليس فقط لأسباب تاريخية ودينية، بل لأن غالبية أقطار الوطن العربي، وخصوصاً أقطار الشرق الأوسط، كانت في حالة نضال ضد الاحتلال الأجنبي. ويمكن اعتبار هذا الكتاب بمثابة محاولة لإعادة إطلاق فكرة الوحدة، من خلال محاولته الوصول إلى اتفاق يقوم على أسس واقعية متماشية مع الاعتراف بالقوقر.

وهاكم بعض الأمثلة حيث أدت وجاهة العربية الفصحى إلى ترجمات تفتقر كلياً إلى الصلاحية في مجال النظرية السياسية:

١ - تُرجمت الكلمة اللاتينية *Res publica* بـ "بالمصلحة العامة" *Intérêt Commun*. وهكذا فقدت دلالتها، حيث اختزلت في ميميز نافه، أو بالأحرى أخلاقي ما بين المصالح العامة والمصالح الخاصة أو الأنانية. وكان من الأجدر ترجمتها بـ "القضية العامة" *La cause publique*. فلتتصور مجتمعاً واجه المسألة الآتية: هل يجب بناء قناة تربط ما بين البحر وأحد الأنهر أم لا؟ سوف يؤيد البعض هذا المشروع لأنه سوف يحيي منطقة معينة، بينما لا يوافق عليه آخرون لأنهم يخشون من الآثار التنافسية الناجمة عن إحياء تلك المنطقة. فالطابع العام لهذه القضية لا يلغي صراع المصالح الخاصة. بل على العكس، إنه يفترضها مسبقاً. قد يقدم سياسي نفسه بمثابة رجل يجعل من القضية العامة أو المشتركة موضوع اهتمامه، وذلك ليس للدفاع عن المصالح العامة، بل للدفاع عن مصالح الطبقة أو الجماعة التي يمثلها. هذا إذا لم ينصّب دفاعه عن مصالحه الشخصية.

٢ - تُرجمت *Souveraineté* في العربية بكلمة "سيادة" التي تعني هيمنة (حرفياً: سيطرة أو *Herrlichkeit* بالألمانية "حكم الفوهرر")، بينما دلالتها الحقيقية، على الأقل تبعاً لتعريف كارل شميث، هي "حق القرار النهائي". تترك لنا الترجمة العربية لهذه الكلمة فقط فكرة علاقة ثنائية فظة من نوع السيد والعبد، بينما هي معنية أساساً بمفهوم سياسي في اتخاذ القرار.

٣ - تُرجم كتاب أرسطو بعنوان *La politique* بكلمة "سياسة"، وهي كلمة مشتقة من جذر "ساس" الذي يعني حرفياً "قاد" أو "سير". وهو ما يطمس أو يخفي كلياً دلالة مشروع أرسطو، الذي لا يهتم بالقيادة ولا بالسلطة، بل بـ "أشياء المدينة" (*Polis*)، حيث المدينة هي الدولة في أيام أرسطو. يبحث الكتاب عن تعريف للدستور ولسكان المدينة *Citoyens* (وهي كلمة لا نملك مكافئاً لها بالعربية، إذ تعني الترجمة الشائعة "مواطن"، وبالأحرى ("الشريك في الوطن"). كذلك يفحص أرسطو مسألة أفضل حكومة - أما يحتمل أن يكون على صلة بنظريته في الحد الوسط بين طرفين، حيث كان يفكر في أنها ستكون حكومة الطبقة الوسطى - كما يعالج مسائل أخرى شبيهة. أما الترجمة التي لدينا فهي "تعريب" محض (إسباغ أفقنا الثقافي السياسي على المفهوم).

لا تتيح الترجمة إلى العربية المحكية تنوير الناس فقط، بل هي تتيح كذلك تحرير عمليات تفكيرنا. لا يمكن أي ثقافة أن تنمو من دون تواصل مع ثقافات أخرى، والتواصل يعني الترجمة. عدد الكتب المترجمة إلى العربية كل عام يعدّ بالمئات، بينما الترجمة إلى البولونية أو اليابانية تعد بالآلاف. ومع أننا تعرضنا للاستعمار من قبل الغرب، ما لا يدفع بنا لأن نحمل الحد الأدنى من الصداقة نحو الدول الغربية، التي يستلزمها أي تبادل ثقافي، إلا أن فقر إنتاجنا في مجال الترجمة يشير إلى تدخل عوامل أخرى غير مسألة توازن القوى (مع الغرب). يمثل فقر الترجمات مؤشراً أكيداً على وجود شيء ما فاسد في كل ثقافتنا المعاصرة، التي تقوم على سياسة في الكتابة مستمرة منذ آلاف السنين. تلك هي السياسة التي يتعين علينا تخريبها وقلبها إذا أردنا أن يكون لنا دور في صناعة مصيرنا، أي إذا أردنا أن يكون لنا وجود تاريخي خلاق.

## الفصل السادس

### الكتابة والسلطة<sup>١</sup>

يكرس كلود ليفي - ستروس في كتابه بعنوان المدارات الخفية<sup>٢</sup> بضع صفحات للكتابة ولدورها في المجتمعات الإنسانية. أثارت هذه الصفحات اهتماماً واسعاً وما زالت إلى الآن تمثل موضوعاً للمناقشة.

إنها لأمر عجب هذه الكتابة [...]، إذا أردنا إجراء الارتباط ما بين ظهور الكتابة وبعض السمات المميزة للحضارة، يتعين البحث في اتجاه آخر. الظاهرة الوحيدة التي لازمت الكتابة هي تشكل المدن والإمبراطوريات، أي اندماج عدد هائل من الأفراد في نظام سياسي، وتراتبهم في طبقات ورتب اجتماعية مغلقة. ذلك هو على كل حال التطور النمطي الذي نشارك فيه من مصر وحتى الصين في الفترة التي بدأت فيها الكتابة. يبدو أنها تيسر استغلال الناس قبل تنويرهم [...]، أما استخدام الكتابة لغايات مجردة عن المصلحة، بغية الحصول منها على إرضاءات فكرية أو جمالية، فهي نتيجة ثانوية إذا لم تختزل على الأعم الأغلب إلى وسيلة لتعزيز وتبرير الأخرى أو التستر عليها<sup>٣</sup>.

وأقل ما يمكن قوله بصدد هذه القضية هو إنها تنطبق على عدد لا يستهان به من المجتمعات الإنسانية، ولكن ليس عليها كلها. يختلف دور الكتابة في الدول البدائية

١ قدمت الصيغة الأولى من هذا الفصل إلى حلقة محدودة من الأساتذة في القاهرة. ولم يستوعبوا أن الأمر لا يتمثل في فرض اللغة العامة بمثابة لغة للكتابة، بل هو يتعلق بالسياسة المعتمدة من قبل الدولة البدائية، وهي سياسة تعنيهم وإمكاناتهم تغييرها.

٢ Claude Levi-Strauss, Ibid, P342-343.

٣ Claude Levi-Strauss, Ibid, P342-343.

في فجر التاريخ، من مثل مصر، وعلى ضفاف الأنهر الكبرى، عن الدور الذي كانت تؤديه في المدن اليونانية، من مثل أثينا. وقبل أن نبحث في وضعية مصر، فلنفحص أولاً وضعية أثينا.

ظهرت الكتابة في العالم اليوناني قبل عام ٧٥٠ قبل الميلاد. اقتبس اليونانيون الأبجدية الفينيقية وأضافوا إليها خمسة أحرف علة. في السنوات الأخيرة من القرن السابع (حوالي ٦٢١ قبل الميلاد) سنّ دراكون قانوناً عن القتل. تكمن أهمية هذا القانون في تنصيب المدينة بمثابة السلطة الوحيدة التي تستطيع إزال العقوبات، واطاعة بذلك حداً لقانون الثار (العين بالعين والسن بالسن) الذي اعتادته العائلات الأرستقراطية. يروي بلوتارك أن قوانين دراكون كانت تعاقب بالموت العديد من الجرائم غير القتل، حتى ليتمكن القول إنه كان مكتوباً بالدم وليس بالحبر.

وعندما سئل دراكون نفسه عن سبب هذه الشدة المفرطة، أجاب بأنه من وجهة نظره، تستحق الجرائم الصغيرة عقوبة الموت، وأنه لم يجد عقوبة أشد قسوة للجرائم الأكبر. وفي ما بعد، سنّ صولون (عام ٥٩٤ قبل الميلاد) قوانين عديدة، أهمها قانون تخفيف الضرائب الهادف إلى إلغاء حق ملاك الأراضي باستبعاد المزارعين العاملين لديهم لقاء ديونهم غير المسددة، كي يجعلوهم يعملون في الأرض. كانت قوانين دراكون وصولون مكتوبة ومحفورة على ألواح خشبية تدور حول محور، بحيث يمكن قراءتها من الجهات الأربع. خلال القرن السادس تكاثرت القوانين المنقوشة على الحجر، وكذلك المعاهدات، والنصوص التي تحدد وحدات القياس وقيمة العملة، وقوائم إحصاء القتلى في المعارك أو أولئك الذين قدموا قرابين للمعابد والآلهة إلخ. لم يتطابق ذلك مع ظهور بيروقراطية ما، لأن النصوص المكتوبة، حتى ولو كانت محفوظة، لم تكن مودعة في مكان خاص، إذ كانت في معظم الأحيان، ت تلف حين يتحقق الهدف من وضعها، كما يحدث حين يُسدّد دين ما. وعلى العموم، فإن فكرة الدولة باعتبارها كياناً منفصلاً عن الأفراد وتقوم بضبطهم، كانت غريبة عن المدن اليونانية، لأن المدينين (أهل المدينة) كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم المدينة: كانوا هم، على الأقل نظرياً، من يقرحون القوانين ويتخذون القرارات، وكانوا هم أيضاً، خلال فترات النظام الديموقراطي، الذين يقومون بدور القضاة. ولقد كان من المتعذر بالطبع على كل المواطنين أن يتركوا أعمالهم ويتجمعوا للحكم في كل حالة. وبغية



إيجاد حل لهذه المشكلة، تم لأول مرة في التاريخ اختراع فكرة "التمثيل": تقرر اختيار عدد من المواطنين كي يمثلوا مجموع الآخرين، ولمدة محددة فقط، ويحكموا في الحالات المطروحة. وبذلك، لم يتخذ استعمال الكتابة في المدينة شكل الوثائق المحفوظة جيداً، مما يميز البيروقراطية، ولكن اتخذ شكل سن بلاغات عامة مكتوبة على حجارة في الهواء الطلق كي يتمكن أي كان من رؤيتها. فالمواطن الذي كان يريد معرفة قيمة قطعة نقدية كان يتوجه إلى بيت المال، وذاك الذي كان يبغى معرفة تاريخ عيد معين يذهب إلى المعبد، كما أن المعاهدات ذاتها كانت "منشورة" في أماكن محددة.

لم يكن يعني ذلك أن كل المواطنين كانوا يعرفون الكتابة. ساد بالأحرى الشعور بأن الكتابة لها شرف أصيل لأنها تتحدى الزمن، وكان للنصوص المكتوبة هالة مقدسة: يكفي التفكير في ألواح موسى. يمكننا القول، على وجه العموم، إن الأثينيين كانوا يدركون القوانين في العصر الكلاسيكي، على خلاف ما نحن عليه، بمخاطبة أشياء مرئية لها وجود فيزيقي. المهم في الأمر، على كل حال، أن الكتابة في القرن السادس لم تكن محتكرة من قبل الأرستقراطية، ولا من قبل الكتبة الذين كانوا في خدمة الدولة. كان لدى الحرفيين والنحاتين واختصاصيي النحاس وبقية الحرفيين فكرة عن الكتابة، وكل مواطن لديه ما يكفي من الطموح أو الثراء كان بإمكانه تعلم الكتابة، لأنه كان لكل مواطن الحق في معرفة القانون. صحيح أنه، تبعاً لملاحظة أرسطو الصائبة، لم يكن الفقراء يحاولون عموماً الحصول على مناصب مهمة: مهن المال والدبلوماسية، والحرب كانت دوماً بيد الأرستقراطيين الأغنياء الذين كان لديهم متسع من الوقت الذي يمكن تكريسه للشؤون العامة، إلا أن كتلة كل المواطنين، أغنياء وفقراء، هي من تختار الرسميين، تحدد لهم مسؤولياتهم وتحكم على أعمالهم.

يطرح هذا الأمر السؤال الآتي: هل التوسع النسبي للكتابة بين الحرفيين والمهنيين كان يعود إلى توسع المدينة، أم العكس هو الصحيح؟ لا شك في أننا نواجه بظاهرتين، كل منهما هي سبب الأخرى ونتيجة لها في الآن عينه. الشيء الأكيد هو أن نشهد على نحو هائل لاستخدام الكتابة في نهاية الفترة البدائية، أي في القرن السادس قبل الميلاد وبداية الفترة الكلاسيكية في القرن الخامس قبل الميلاد. كذلك فإنه من المؤكد أيضاً أن ظهور الديموقراطية أعطى لكل مواطن إحساساً أكبر بقيمته الذاتية، وبالتالي خلق لديه الرغبة في تعلم الكتابة.

ومن أفضل المؤشرات على ذلك قرار عام ٤٨٠ قبل الميلاد القاضي بعدم نفي أي مواطن، إلا إذا أعطى ستة آلاف مواطن موافقتهم على ذلك، من خلال كتابة أسمائهم على قطعة من الفخار أو لوح من الأردواز. وهو ما يشهد على إمكان قيام المدرسة الابتدائية لتعلم القراءة والكتابة. ومن المهم أن نلاحظ أن النفي كان إجراءً معتمداً حين يصبح أحد الرؤساء فائق الشعبية، بحيث قد يتسرب إلى نفسه الإغراء بأن يركز كل السلطة في يديه. لا يمكن النفي أن يتجاوز مدة عشر سنوات، ويحتفظ المواطن المنفي بحقوقه في ملكياته. وبعبارة أخرى، نحن في صدد إجراء ممارس لحماية الديمقراطية، كما هي الحال في المدة المحدودة لولاية رؤساء الولايات المتحدة.

يحكى أن رجلاً من الريف أتى كي يصوّت على نفي أريستيد. وحيث إنه لا يجيد كتابة اسم هذا الأخير، فلقد طلب من جاره أن يقوم بذلك نيابة عنه. وللصدفة كان هذا الجار هو أريستيد ذاته، فما كان منه إلا أن سأل الرجل: "هل أساء إليك أريستيد بشكل ما؟"، فأجاب الرجل: إنه لم يسبق لي حتى أن رأيته، إلا أنني سئمت من سماع وصف الناس له على الدوام بأنه "أمين"؛ فأنت لا تسمع أبداً أحداً يقول "أريستيد" فقط. اسمه مصحوب دوماً بـ "الأمين".

تكمن أهمية هذه القصة ليس في معرفة ما إذا كانت حقيقية، بل في دلالتها. إنها تدل على أن اليونانيين كانوا على وعي مسبق بالخطر الذي يمثله رئيس فاضل واستثنائي، بحيث ينتخب ويعاد انتخابه لأنه يعتبر من المتعذر "إيجاد آخر ليحل محله". وكان البلد كان خصباً قبل ولادته وأصبح عقيماً بعدها.

نمى استعمال الكتابة ما بين ٤٧٩ و ٣٢٣ قبل الميلاد، وخصوصاً في التجارة وإجراءات العدل. أعلن قانون في عام ٣٤٠ ق. م. في أثينا يمنع تسجيل أي صفقة من دون الرجوع إلى عقد مكتوب. كان يطبّق ذلك على الإجراءات المدنية من مثل إعتاق عبد، حيث يستلزم الأمر وثيقة مكتوبة تضمن عدم إمكان العودة عن هذا القرار. وفي الربع الأخير من القرن الخامس ق. م. كان يتعين أن تكون الحجج القانونية مكتوبة. في البداية كان يقوم الكتبة الحاضرون خلال الإجراءات القضائية بكتابتها. ولكن بعد ٣٧٠ ق. م. كان كل طرف يتحمل مسؤولية كتابتها لحسابه الخاص. في عهد ديموستين، اشترط قانون، في بعض الحالات، أن تقدم شهادة الشهود مكتوبة، مع أنه كانت تجب قراءتها شفهاً بحضور

الشهود للتأكد من أصالتها. وبالإمكان تخيّل الأهمية التي اكتسبها غزو استعمال الكتابة عندما وسعت أثينا إمبراطوريتها وما نجم عن ذلك من ضرورة تقارير المراسلة ما بين المركز والأطراف، كما بالإمكان تخيّل التعقيد المتنامي للإجراءات الإدارية، وخصوصاً لفاعلية جباية الضرائب، ووضع قوائم الدائنين والمدينين، إلخ.

وبينما نما هذا التوسع، بدأت الكتابة تستعمل لغايات أخرى غير تلك التي حددها أرسطو على أنها مفيدة، وهكذا ظهرت كتابة التاريخ. يعتبر هيرودوت عموماً "أبو التاريخ"، إلا أننا نعلم أنه هو ذاته قد استند إلى كتابات سابقة له. أنهى كتابه قبل ٤٢٠ ق. م. وأتى توسيديد بعد ذلك بثلاثين عاماً. ابتداء الاهتمام بالأرشفة مع توسيديد، ولكن من دون أن يعتبر المخطوطات المصدر الوحيد لكتابة التاريخ. طورت كتابة التاريخ من دون شك أهمية الكتابة، وأوجدت رغبة في دراسة الماضي في ما يتجاوز حدود الذاكرة. كذلك كان هناك تراجيديات أخيل والأثر العميق الذي كان لها على الأثينيين، والفرس حيث سمع الأثينيون لأول مرة وصفاً رائعاً لانتصار اليونانيين على الفرس في معركة سلامين. وكتب أخيل أيضاً "التوسلات"، حيث أصبح بإمكان الجمهور الأثيني أن يستمتع بالحرية التي يحظى بها شعب يعيش في الديمقراطية، وذلك من خلال المقارنة ما بين الديمقراطية والاستبداد. كان من نتائج نمو الكتابة ظهور تجارة جديدة، وهي تجارة الكتب (٤٢٠ - ٤١٠ ق. م.)، وهكذا نمت المكتبات العامة والخاصة في الوقت نفسه الذي ازدهر فيه المسرح والحب الذي يكتنه له الأثينيون، ما حدا بأفلاطون إلى وصف الديمقراطية - التي كان أحد أعدائها - بمثابة "الحكم المسرحي". أسهم الكتاب أيضاً في نمو الفكر العلمي والرياضي، وهما عاملان أديا إلى نمو هائل للفلسفة التي أبدت القدرة على انتقاد أي مظهر من مظاهر الحياة، سواء منها الشهادات الحسية أو الديمقراطية بحد ذاتها. ومع نمو القراءة بمثابة نشاط فكري قائم بذاته، فإن الكتابة بحد ذاتها أصبحت موضوعاً للتفكير، ما قسّم الكتاب إلى متحمسين ومعارضين.

كان ديودور أحد أكبر الأنصار حماسة للكتابة، حيث صرح:

إنه بواسطة "الكتابة" هذه ينجز الشغل الأكثر أهمية والأكثر فائدة في الحياة - الاقتراع، الرسائل، الوصايا، القوانين وكل ما يحافظ على الحياة في الطريق المستقيم. فأي مديح لمحو الأمية يمكن أن يكون كافياً؟ في الواقع، بفضل الكتابة يمكن إرجاع الأموات إلى ذاكرة الأحياء، كما أن الكلمات المكتوبة هي ما يقرب البعيدين. وكذلك، فبفضل الاحتفاظ

بالكتابة يمكن ضمان ديمومة المعاهدات المعقودة بين الشعوب والملوك في زمن الحرب. وعلى وجه العموم، فبفضل الكتابة تحفظ أفضل أقوال الحكماء وكهان الآلهة، كما يتم الحفاظ على الفلسفة والثقافة، وبواسطتها تنقل إلى الأجيال اللاحقة بنحو دائم. فإذا، إذا كان صحيحاً أن الطبيعة هي سبب الحياة، فإن سبب الحياة الطيبة هو التربية القائمة على الكلمة المكتوبة<sup>١</sup>.

أما بالنسبة إلى الخصوم، فليس من المفاجئ أن نجد بينهم هيرودوت وتوسيديد اللذين تحققا من خلال عملهما الخاص أن الكتابة قد لا تكون ذات صدقية. وصف أريستوفان في كتابه العصافير الكتابات المنسوبة إلى الآلهة بأنها أكاذيب وقذح وذم. إلا أن تأملات أفلاطون هي التي أوضحت العلاقة ما بين الكتابة والسياسة. وهو يعرض في كتابه فادر الانتقادات الثلاثة المعروفة جيداً ضد الكتابة<sup>٢</sup>. فهو يهاجم أولاً الفكرة القائلة بأن الكتابة تنمي الذاكرة. إنها على العكس تضعفها، إذ تدفع الناس إلى الركون إلى إشارات خارجية لإثبات صحتها. وهكذا فالكتابة تنمي إعادة التذكر لا الذاكرة. تثبت العديد من الأمثلة حدس أفلاطون. يأتي أحد هذه الأمثلة من هاواي، حيث حفظ عدد من الهاوايين الكتاب المقدس من مجرد سماعه يقرأ بصوت عال، وذلك قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة.

كذلك يقال، من ناحية ثانية، إن الكتابة تنمي الذهن وترهفه. يعتبر أفلاطون هذا الحكم مجرد وهم. فالكتابة لا بداية لها ولا نهاية. يبدو أن أي امرئ يقرأ هذه المادة لديه فكرة عن كل شيء حين يفتقر إلى الحكم الصائب - عداك عن بلادة ذهن المتحذلق الكثير الادعاءات والمفتقر إلى المعرفة الحقة.

وأخيراً، فإن الأمر الأكثر مدعاة للخشية بصدد الكتابة هو تشابهها مع الرسم. الكتابة كالرسم: هل يمكن المرء ألا يتوقع جواباً على أسئلته، كما أنه ليس بالإمكان المجادلة؟ عندما يكتب الكلام، فإنه يسري على الصفحة من دون الأخذ في الاعتبار الذين يفهمون والذين لا يفهمون، أو أولئك التي يتعين أن تتوجه إليهم وأولئك الذين يجب ألا تتوجه إليهم. لا يعدو الكلام المكتوب أن يكون تقليداً مغلوطاً للكلام المسموع الذي ينقش في الذهن لأنه مصحوب بالمعرفة.

١ Cité dans William V. Harris, *Ancient Literacy*, London Harvard University press, 1989, d'après Diodore de Sicile, XII -3.

٢ Platon, *Phèdre*, Trad. E. Chambry, Paris, Garnier, 1964, 275 a, b, c, d, e.

على الرغم من هذه الانتقادات، كان أفلاطون أول من دافع عن ضرورة إنشاء مدارس، وتربية إجبارية في مدينته الفاضلة، حيث يجب أن تتعین القراءة والكتابة للصبيان والبنات من دون تمييز، وذلك في الكتاب السابع من "القوانين". وبالتالي كيف يمكن إذا انتقاد الكتابة بقسوة وتشجيع تعليمها في آن واحد؟

اتخذت الكتابة منذ ظهورها طابع الحقيقة المنزلة. البراهين على ذلك عديدة. فلقد كان خلقها على غرار خلق العالم، ينسب إلى الله. ولهذا كانت الدول البدائية تميل إلى تشجيع الكتابة المنقوشة على الحجارة أو على المسلات، مع علمها أو بسبب علمها على وجه التحديد أن الشعب لا يستطيع قراءتها، ولأنها كانت ترغب في إيقاظه على جهله. ولمجرد كون النص مكتوباً، كان ذلك يعطيه وجهة كافية لضمان خضوع الشعب. كتب أفلاطون في مجتمع يمتلك كل مواطن فيه حق الكتابة، نظرياً على الأقل. صحيح أن النسبة المثوية لمن يستطيعون القراءة لا تتجاوز ٥% من المزارعين، و١٠ إلى ٢٠% من غالبية المواطنين الأحرار، إلا أن المهم في الأمر، مما سبق لي الإشارة إليه، هو أن الكتابة لم تكن حكراً على فئة من السكان، إذ إن أي رجل ثري أو طموح كان بإمكانه أن يعلم أولاده الكتابة، حتى قبل وجود المدارس بوقت طويل. باختصار، كانت أثينا مجتمعاً لم تقتصر فيه الكتابة على الأهداف الأربعة النافعة التي ميز أرسطو بينها وهي: كسب المال، إدارة الأسرة، التربية، والمهام السياسية والدينية. كانت الكتابة في أثينا أداة في خدمة الفلسفة والأدب (وخصوصاً الشعر والمسرح) والتاريخ. وهكذا أصبح بالإمكان التفكير في القانون ليس بمثابة وحي منزل، بل بمثابة شيء نسبي، متوقف على إرادة الشعب المنتمي إلى المجتمع، كما أصبح بالإمكان، بالمنحى ذاته، الاهتمام بالكتابة لذاتها، والتحقق من أنها قد تكذب أو تناقض نفسها. وهكذا تتضح دلالة انتقاد أفلاطون: تجريد الكتابة من طابعها المقدس. طريق الحقيقة ليس الكتابة بل الديالكتيك، أي اللغة المحكية التي تستلزم فريقين أو ثلاثة: المتكلم، المستمع، واللغة التي يتشاطرانها. استخلص أفلاطون، بفضل هذا النقد، ولأول مرة في تاريخ البشر، فكرة العقلانية بذاتها، أي العقلانية المتحررة من كل خلط بينها وبين العقيدة. حتى ليمكنني القول إن أهمية هذا الاكتشاف توازي أهمية الكتابة ذاتها، وليس هناك من مجال للشك في أن أفلاطون قد وزن بالتأكيد مدى نقده. وللبرهان على ذلك، يمكنني أن أذكر كيفية افتتاحه لنقده هذا من خلال ذكر الأسطورة المصرية لظهور الكتابة

بمثابة هبة من الإله توت، ومن خلال تخيل نقاش ما بين توت وملك طيبة. يتخذ هذا البرهان كامل دلالاته إذا تذكرنا التمييز المنتظم الذي يقيمه أفلاطون ما بين أشياء الفكر التي ينطبق عليها العقل والديالكتيك، وبين الأشياء التي تتطلب اللجوء إلى الأساطير والاعتقادات كي تسد ثغرها. إذا كان يدعو إلى فرض إلزامية تعليم الكتابة، فذلك لأنها ضرورية لحكم المدينة (واجب ملزم بالنسبة إلى المواطنين الأحرار)، وضرورية كذلك لإدارة الأسرة (ما يمثل واجباً ملزماً على النساء).

من المهم الاعتراف بأن هذا الانفصال الأول ما بين العقل والاعتقاد في حقل الفكر الإنساني لم يكن أبداً ليحدث من دون التجربة الأثينية في الديموقراطية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وبغية جلاء هذه المسألة، من الضروري النظر في ما يمكن تسميته المسلمات الفلسفية للأنظمة السياسية.

هناك طريقتان للتفكير في الفلسفة السياسية؛ تبدأ الأولى بالسؤال الآتي: ما هو النظام المثالي؟ يخص هذا السؤال ما يجب أن يكون تاركاً جانباً الفروق القائمة ما بين المجتمعات الإنسانية، كما الفروق داخل المجتمع الواحد. وبالطبع، لا يمكن محو كل الفروق وإنجاز التجانس الكامل، إلا في مسرحية هجائية مقذعة من مثل "الجمعية النسائية" لأريستوفان. يتمثل منطق المسرحية بالآتي: إذا تنكرت النساء بزي الرجال، فبإمكانهن التغلغل في المجالس العامة وتشكيل الأغلبية فيها، وعندها سيقمن بسن قوانين تلغي كل أشكال التمييز وتعطي المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات للرجال والنساء، للأغنياء والفقراء، للشباب والشيوخ، لمن يتصفون بالقبح أو الجمال، للعبدة والأحرار، للجهلة والعلماء إلخ. وستكون النتيجة استحالة قيام الحياة الاجتماعية - حيث يعني التجانس التام دولة تسودها النزاعات الدائمة من دون قاضٍ كي يحكم في الصراعات. يتمثل هدف المدينة الفاضلة في إنجاز الوحدة، ليس من خلال إلغاء الفروق، بل من خلال إخضاع الأدنى من الناس إلى الأعلى. تعين على أفلاطون أن ينجز، في الجمهورية، نموذجاً تحدد فيه الوظيفة العامة مسألة الخضوع تبعاً لسلسلة من السلطة ترتفع تراتبياً إلى القمة.

يتتدى المسار الثاني المفتوح على الفلسفة السياسية بالاستفهام الذي طرحه أرسطو: ما

هي المدينة؟ وبعبارة أخرى: كيف نحدد المدينة أو الدولة؟<sup>١</sup> قرر أرسطو أنه إذا كانت المدينة وحدة عضوية، من مثل البقرة أو الحصان أو شخص ما، أو إذا كانت منتجاً إنسانياً، من مثل القصر أو المعبد، فإن وحدتها ستكون بديهية، ولن تكون هناك حاجة إلى البحث عنها. ومع ذلك، فإننا نتكلم عن المدينة كأنها كانت وحدة. صحيح أنها توحد مختلف العناصر التي تكونها، إلا أنها لا تلغي أبداً الفروق. كذلك لا يمكننا مقارنة هذه الوحدة بوحدة الجسم الإنساني الذي تخضع فيه مختلف الأعضاء للرأس، ذلك أن أرسطو يصرّ على أن الطبيعة لا تنتج إنساناً فائقاً واستثنائياً بحيث يمكن الشعب اعتباره بمثابة إله. وفوق ذلك، تطرح السياسة، مثلها في ذلك مثل أي علم عملي، أسئلة ليس لها إجابة وحيدة؛ فإعطاء الحكم للفلاسفة أو من يمتلكون "العلم" كما يقترحه أفلاطون، لا يوفي بدوره بالغرض. وانسجاماً مع رؤيته هذه، يرى أرسطو أن من الأفضل للمدينة إجراء تغيير منتظم للرؤساء، بما يتيح تطبيق مختلف الآراء وتصحيح الأخطاء. ومع هذه الأطروحة، انتهى أوان المقارنة ما بين المدينة والأسرة، حيث الأدوار دائمة ضمنها، أي: الاحتفاظ بالسلطة للأب وبالخضوع للمرأة والأبناء. لا توجد الوحدة التي يمكن إنجازها في المجتمع الإنساني بنحو طبيعي، بل يتعين علينا خلقها من خلال الخطاب والاختيار. يطرح أرسطو في القسم الثالث من كتابه السؤال الآتي: من هم أعضاء المدينة؟ إنه لأمر محسوم أن يلاحظ بهذا الخصوص أنه خلافاً للجسم الإنساني، حيث اليد لا تقاوم أبداً الرجل، وخلافاً للبيت، حيث لا يعارض الخشب أبداً الحجر، فإن المدينة مكوّنة من عناصر يقاتل بعضها بعضاً. وهو ما يضع حداً للمقارنة الأكثر سخفاً مع راعي القطيع.

سيلاحظ القارئ أنني تكلمت عن سبيلين ممكنين لمقاربة الفلسفة السياسية. يضع أولهما الفروق جانباً ويبحث عن وحدة مثالية، بينما يعترف الثاني بالفروق ويتحرّى عن الوسائل الممكنة لتحقيق الوحدة بقدر الإمكان. تمثل هاتان الطريقتان، في الواقع، خيارين ممكنين للمجتمعات الإنسانية. وباستثناء اليونانيين في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد، حتى عودة ظهور الديمقراطية في الولايات المتحدة وفي أوروبا بعد الثورة الفرنسية، يبدو أن غالبية

١ كانت المدينة بالنسبة إلى اليونان هي الدولة، والدولة هي المدينة. وهي ظاهرة برزت من جديد خلال عصر النهضة مع نشوء المدن - الدول من مثل البندقية أو جنوا. ترجمة كلمة Citoyen يجب أن تكون "عضو المدينة" لأن هذا الانتماء يرتب بعضاً من الحقوق والواجبات، ويكون أساس النظام السياسي. أما ترجمتنا الشائعة بكلمة - مواطن - التي تدل حرفياً على من يحمل هوية وطنية Compatriote فتجانب المعنى.

المجتمعات الإنسانية المنظمة في دول قد اختارت الطريقة الأولى. تتمثل هذه الطريقة في فرض الوحدة من خلال إيكال السيادة ليس إلى نص أو إلى دستور، بل في المقام الأول إلى شخص. تتعدد صور هذه الحالة، ويمكن العثور عليها في كل الدول: الرأس - أي الأب والراعي - والرعيا الذين يمثلون بالتالي الأقدام، الأبناء، النساء، والخراف. تتنوع الأسماء: ملك، إمبراطور، فرعون، خليفة، أمير، رئيس، أمين عام وهكذا دواليك، إلا أن الدلالة تظل واحدة وهي "الديكتاتور" الذي يتحكم في كل شيء، والذي لا يتحكم فيه شيء. يمكن وصف هذا الشكل من الحكومة بالتبوقراطية (الحكم الإلهي)، لأن ضبط الديكتاتور متروك ببساطة إلى الإله... أو إلى التاريخ! وهنا يصبح السؤال كالاتي: ما هي وظيفة الكتابة في أنظمة من هذا القبيل؟ أتحوّل أولاً إلى مصر للإجابة عن هذا السؤال.

ظهرت الكتابة في ما بين النهرين ووادي النيل إثر حالة أولية من الإدارة استعملت العلامات الرقمية لتنظيم القوائم والأوزان، والمقاييس والجبايات والمصاريف إلخ... لا يمكن هذا التنظيم الأول أن يتطور في إدارة الدولة من دون الكتابة. حتى إنه من الصعب تصور بداية الاستعمار وقيام الإمبراطوريات من دون قفزة كبيرة إلى الأمام في تقنية الكتابة. إلا أنه ليس من السهل علينا تصور التأثير العميق لظهور الكتابة على الشعوب التي لم يسبق لها أبداً معرفتها. يمكن طرفة أسترالية من منتصف القرن التاسع عشر أن توضح ذلك. حدث ذلك في المنطقة الداخلية من البلد، حيث تبين أن مستعمراً مشغولاً جداً بقطعانه، ما لا يتيح له الذهاب إلى المدينة، أرسل فتى من الأبورجين (سكان أستراليا الأصليين) كي يشتري له بعض علب التبغ التي نفذت منه. أعطاه رسالة حدد له فيها نوع التبغ المطلوب وكذلك عدد العلب. وفي طريق عودته لم يستطع الفتى مقاومة إغراء سرقة علبة أو اثنتين من الكمية. وبالطبع كان السيد يعرف عدد العلب التي طلبها، وبالتالي عرف، وبالتحديد، عدد العلب التي سرقها الفتى. ولقد أسقط في يد الفتى الذي لم يستوعب كيف يمكن رسالة ضمن ظرف مختوم أن تكشف فعلته. ذاك هو سر الكتابة: إنها ترى من دون عيون وتتكلم من دون صوت. وليس من المستغرب إذاً أن يسميها المصريون "كلام الله"... إذ إنها تتضمن بعضاً من صفاته. وباختصار، "فالكتابة هي حيز الحقيقة الصامت". وهو ما

١ هناك العديد من النكات والأقاصيص الطريفة في مصر كما في بقية الدول العربية والتي لا تترك مجالاً للشك حول القيمة القضائية للرئيس.



ينطبق على الهيروغليفية على وجه التحديد، التي تجعلك تحس أكثر من أي كتابة أخرى، ربما، بالدلالات الخفية وراء صور مرئية، وكأنها تراك من دون أن تراها. ولكن حتى اليوم، إذا صادف أن قابلت راهباً قبطياً في أحد أديرة الصحراء في مصر، ورأى أنك لا تبني كلياً ما يروى من قصص عن معجزات قديس هذا الدير، فإنه سيقول لك "هذا هو التاريخ، إنه مكتوب". والكلمات ذاتها ستسمعها من فلاح مصري يروي لك معجزات واليه المبجل والمتوفى منذ زمن، والذي أصبحت قرينه بفضل محجاً للزوار. وباختصار، مثلت الكتابة منذ ظهورها سلطة مطلقة لا تضاهي، بمثابة وسيلة للاستغلال. ولم تقتصر أولى استعمالاتها - سواء في مصر أو العراق أو الهند أو الصين، أو في الأميركيتين - على مسائل الإدارة، والمحاسبة والتجارة، بل ارتبطت في المقام الأول بغايات الواجهة وترسيخ السلطة.

وكانت هيمنة الكتابة أكثر سطوة بمقدار ما منعت الشعوب من كشف أسرارها، إذ لم يتجاوز عدد من كانوا يستطيعون الكتابة والقراءة في الشرق الأقصى وفي مصر ٢,٥ إلى ٥%، وحتى أحياناً أقل من ١% من السكان. كانت التقنية الجديدة مخصصة في المجتمعات للطبقات المسيطرة. كان استعمال الكتابة تحت سيطرة النخبة الحاكمة التي لم يكن كل أعضائها بالضرورة قادرين على القراءة ولا الكتابة. كانت توكل مهمة الكتابة إلى الكهنة والكهنة، بينما كان الناس ذوو الواجهة يملون عليهم المحتوى، كما أن القدرة على القراءة ظلت بدورها محدودة. كانت توضع النصوص الهيروغليفية في القرن الأول، في أماكن مختارة: معابد، قصور وقبور، حيث كان يقتصر حق الدخول إليها على نخب المؤسسات السياسية والدينية. ويبدو أن انتشار النصوص المكتوبة في الأماكن العامة أتى بعد ذلك، حين استقرت الدولة وتوسعت إلى إمبراطورية. كانت الكتابة عندها تمثل رمزاً للسلطة السياسية والاقتصادية واستعراضاً للوجاهة، وليست وسيلة للإنباء والإعلام.

توسعت هذه الكتابة الصماء إلى حد بعيد خلال القرون اللاحقة، حيث كانت القوانين تنقش على أحجار موضوعة في الساحات العامة، وكانت القرارات تكتب على أعمدة منصوبة في البلاد المحتلة، كما كانت الجدران مغطاة بالكتابات. كانت هذه الكتابة "العامة" من دون قراء، إما لأنها كانت بلغة غير لغة البلد المحتل، أو لأنها كانت مكتوبة بلغة قديمة لا يستطيع حتى شعب بلد القوة المحتلة ذاته فهمها. كانت ببساطة تنشر هيمنة السلطان.

كان الهدف الرئيس للكتابة يتمثل في الإبقاء على الفروق الاجتماعية بين الحاكمين والمحكومين، بحيث إن التفكير في أن من الممكن أن يصبح الحاكمون محكومين بدورهم كان يمثل نوعاً من التجديف. ولذلك لم تكن الكتابات القديمة تستخدم أبداً لنقل اللغات المحكية. استعملت الكتابة المسمارية في البدء في اللغات السومرية. وبعد انطفاء السومرية، جرى الحفاظ على المسمارية بمثابة لغة مكتوبة خلال العصر الأكادي، حيث اعتبرت خلاله بمثابة لغة فصحي، بمعنى أن الناس يتعلمونها في المدرسة وليس من أمهاتهم، تبعاً للتعريف الذي قدمه دانتلي.

ولقد اتبعت مصر السياسة ذاتها التي شاعت في شرق المتوسط، بما فيها شعوب الأناضول وإيران والهندو أوروبية. كانت هذه السياسة تفرض التعليم بلغة مختلفة عن اللغة المحلية. ولم يكن بإمكان أي شخص الحصول على منصب في مؤسسة سياسية، اجتماعية، اقتصادية، أو حتى دينية، إذا لم يكن قادراً على الكتابة باللغة "النبيلة". واحتفظت مصر، طوال آلاف السنين، بالكتابة الهيروغليفية كوسيلة للتعبير عن الإرادة الملكية والقرارات العامة، مع الواجهة والصيغة الإلهية اللتين ارتبطتا بها.

لطالما عُرفت مصر بما سماه أحد الكتاب "فذلكتها اللسانية"، أي ميلها إلى حماية اللغة المتبعة أعلى من اللغة العامية، والتي تلائم وحدها الكتابة والثقافة، من كل تغيير. أصبحت الأشكال الأدبية المميزة لعصر السلالة الحاكمة الوسيطة (عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد) لغة جامدة أحفورية، مستعملة لكتابة الحكم والقصص أو الأناشيد، إضافة إلى النصوص الدينية السحرية، الطبية والفلكية - أي لغة أصبحت بذلك محمية من عدوى اللهجة العامية. ومع ذلك، تغلغت هذه اللهجة في الكتابات "الفصحى" بفضل قصائد الحب والحوارات ذات الطابع الأكثر ذاتية من الأنواع الأدبية الأخرى.

وحيث لم تكن لغة التعليم والإدارة والثقافة هي اللغة الأم، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الكتاب من الكتابة بلغتهم الأم. ولقد كانت هذه الأخيرة ذات شعبية كبيرة بلا أدنى شك في الشعر الغزلي. إلا أنه بسبب انتشار الأمية، لم يؤدّ استعمال اللغة العامية إلى توسيع دائرة القراءة المحدودة جداً. ومعنى آخر، ما زالت الأمور في مصر المعاصرة على الحالة ذاتها التي كانت عليها في أوروبا القرون الوسطى.

أما في ما خصّ الكتابة الشعبية التي يوحى اسمها بأنها كانت أقرب إلى لغة الشعب،

فإن غالبية النصوص المتوافرة لنا هي نصوص شرعية بصياغة رسمية، غريبة كلياً عن كل لغة محكية. وحتى الرسائل الشخصية تستعمل تعابير ثطية (فصحى)، من التي تميز أسلوب الكتاب العموميين، ذلك أن معظم الناس كانوا أميين، وكان يتعين عليهم الاستعانة بهؤلاء المحترفين، كما لا يزال جارياً إلى الآن في عدد من القرى المصرية، على عكس اليونان، حيث كانت الرسائل المكتوبة حافلة بالثرثرات والأقاول، إذ إن المرسل كان يعلم أن المرسل إليه سوف يقرأ الرسالة بنفسه من دون الاستعانة بأحد ليقرأها علانية. أما التشابه الموجود في المخطوطات الشعبية، فمن المحتمل أنه كان يعود إلى النظام التعليمي، كما يمكن مشاهدته في كتب القراءة المدرسية. ولا يعني ذلك أن حكومة مصر القديمة كانت تملك وسائل ضبط كل كاتب شعبي. كان إرغام الكتابة بالفصحى يعود على الأغلب إلى نوع من الضبط الذاتي اللاواعي، حيث كان الكتاب العموميون أنفسهم يخضعون لتأثير الفكرة الوهمية القائلة بكتابة مثالية.

وبالطبع فإن الفارق ما بين اللغة المحكية واللغة المستعملة في الأدب والإدارة أكثر وضوحاً حين يخضع بلد ما لقانون أجنبي. فلقد كان استعمال الكتابة في الأدب وعلى الآثار الحجرية معروفاً جيداً في مصر منذ ثلاثة آلاف عام قبل غزو الإسكندر المقدوني. كانت الكتابة مستعملة كذلك في مهمات قانونية من مثل تسجيل الملكيات العقارية، وإقرار الملكية والعقود، إضافة إلى غايات شخصية من مثل الزواج والطلاق، والرسائل الموجهة إلى الآلهة إلخ. والواقع أن الشخص الذي يحوز سجل ملكية، لم يكن بالضرورة بحاجة إلى معرفة قراءته، إذ المهم هو امتلاك الوثيقة المكتوبة.

كذلك هي الحال بالنسبة إلى مرسل الرسالة، فما يهمه ليس محتواها، بل ما تعنيه الرسالة بحد ذاتها، لكونها رسالة. وباختصار، مع أن غالبية الناس كانوا أميين، وأن القراءة والكتابة كانوا يمثلون نخبة جد محدودة، فإن الكتابة في المجتمع المصري كانت تكون جزءاً من كل أوجه الحياة، حيث يتجاوز مدى أهميتها كثيراً دائرة الكتاب المحترفين. وعندما اجتاحت الإسكندر مصر في عام ٣٢٢ قبل الميلاد، لم تصبح الكتابة الشعبية يونانية بين عشية وضحاها، إذ استغرق التغيير بعض الوقت، تماماً كما استمرت اليونانية مستعملة ما يقرب من قرن قبل أن تحل العربية محلها. وما يمكن استخلاصه من لفائف البردي التي عثر عليها حتى الآن، هو أن اليونانية أصبحت خلال مئة وخمسين سنة اللغة السائدة، على الأقل

في أوساط الطبقات الأعلى من المجتمع. وتتجلى هذه الظاهرة بوجه مزدوج. صحيح أن الغزاة فرضوا لغتهم، إلا أنه يمكننا أيضاً القول إن تبني الكعبة والقساوسة اللغة اليونانية كان يمثل علامة على مرونة النخبة وإرادتها في التكيف مع السلطة الجديدة حفاظاً على مناصبها، وكذلك على نصيبها من الجاه والرفاه.

ما لاحظناه إلى الآن بصدد مصر وشرق المتوسط ليس سوى جزء من قضية أكثر اتساعاً كرسَتْ لها العديد من الدراسات المعاصرة: أي العلاقة ما بين الكتابة والسلطة الممثلة في الدولة وجهازها. لا يمكن الدولة أن تترك النصوص خارج سيطرتها، إذ إن السيطرة على النصوص هي في الآن عينه السيطرة على النفوس، ذلك أن السيطرة على النصوص هي في الآن عينه سيطرة من خلال النصوص. وهكذا نستوعب تنوع الوسائل التي تلجأ إليها دولة ما كي تحافظ على هيمنتها: فهي لا تملك فقط حق الإجازة والرقابة، والمصادرة، والحرق، والعقوبات حين ترغب وتريد، بل هي تحارب كذلك كل تأويل للنصوص يخالف لتأويلها، سواء أكانت منزلة أم غير منزلة، وذلك من خلال تحريك معارضة علماء الدين<sup>١</sup> التابعين لها، ومن خلال إفساد الصحافة والكتاب بقدر المستطاع. ولكن حتى لو وضعنا هذه الإجراءات جانباً، وهي عمليات نوعية وظرفية، واقتصرنَا على النظر في الثوابت، فبإمكاننا أن نرى أن ذلك يكمن في تعليم الكتابة بلغة غير اللغة الأم، بحيث يمكننا القول إن الأطفال الذين يتعلمون الكتابة يربون من جديد، بحيث يوجه حبهم إلى "لغة الآباء"<sup>٢</sup>. وهكذا يربي الكتاب من هم بمثابة نخبة مقطوعة الصلة عن شعب أمي في غالبية الكبرى. الهوية بين الطرفين من الاتساع بحيث إن بعض الدول المعاصرة "الديموقراطية"، وعلى رأسها مصر، هي على يقين من انعدام فاعلية كتابها بحيث تتركهم، تحت ضغط المطالبة بمزيد من الديمقراطية، ينتقدون أي شيء، شريطة ألا يمسوا الرئيس، وهو الطوطم الذي يفترض أن تتكون حوله وحدة الشعب. ليس من المستغرب إذاً أن نلاحظ أن عودة الديمقراطية إلى أوروبا الغربية، بعد غياب امتد عدة قرون، لم تكن ممكنة إلا بعد معركة ما بين اللاتينية باعتبارها اللغة المشتركة في أوروبا، وبين لغات الكلام الفعلي في مختلف بلدانها.

- ١ المقصود هو السلطات الدينية التي تحسم في نزاعات التأويل، والتي تصدر الفتاوى. ويمكن أن نسمي المفتي، وهو أبرزهم، مصدر الفتاوى. وتجدر الملاحظة أنه يتقاضى راتبه من السلطة المركزية.
- ٢ يمكن الأنظمة التيقراطية أن تستمر، بمقدار ما تضفي على السلطان مكانة أبوية، لأنها تساعد على الدفاع النفسي ضد فظاعة سفاح المحارم.

ومن الأكيد أننا سنسمع حول هذا الموضوع بعض أعضاء النخبة يقولون إن اللغة العامية لا تلائم الأدب لأنها لغة الشارع المخصصة للقضايا اليومية، وليس للفكر الرصين، والمشاعر الإنسانية العميقة. آمل أن يفكر هؤلاء "الإخوان" بجدية أكبر، وأن يفهموا أن الكتابة باللغة العامية لا تعني إعادة إنتاج لغة الشارع، بل هي تعني استخلاص أدب (شعبي) مما هو متاح في كل لغة بفضل بنيتها. هل يعلم من ينادون برأي مخالف أن غاليليو الذي كان أكبر سلطة علمية في عصره، كان كذلك أول من استعمل اللغة العامية (الإيطالية) في كتاباته العلمية، وأن هناك إقراراً بأن أسلوبه كان بالغ الجمال، وأن أكثر من دراسة قد كرست للبلاغة الغاليلية (نسبة إلى غاليليو)؟ وهل يعلمون أن خياره الكتابة باللغة العامية وتحديه للاتينية كان السبب الأكبر الذي حال دون إبطال الحكم عليه؟

أدين غاليليو في عام ١٦٣٣ حين أعلنت المحكمة المقدسة بعد ستة أشهر من المحاكمة أنه كان متهماً بشدة الهرطقة، وخصوصاً لأنه اعتقد ودافع عن المذهب - الباطل والمناقض للكتب المقدسة - الذي يقول بأن الشمس هي مركز العالم وأنها لا تتقل من الشرق إلى الغرب، وإنما الأرض هي التي تتحرك وأنها ليست مركز العالم، وكذلك لادعائه بأن هذه الفكرة يمكن التمسك بها والدفاع عنها باعتبارها محتملة، وذلك رغم إعلانها والمناداة بها على أنها مضادة للكتب المقدسة<sup>١</sup>.

وفوق ذلك كله، أثبتت التحقيقات أن المتهم لم يقتصر على الدفاع عن مذاهب فاسقة، بل قام بنشرها على أوسع نطاق أمكنه فعله. ولقد اختار لهذه الغاية الإيطالية العامية بمثابة لغة للكتابة، وهي لغة لا تتناسب يقيناً مع أفضل ما يلائم مذهب سلطة البابا المطلقة أو أي علم آخر، وإنما هي اللغة الأكثر ملاءمة لجذب السوق الجهلة الذين تنطلي عليهم الأباطيل بسهولة<sup>٢</sup>.

ولقد رأينا أن دانتى كان أول من حوّل على تغيير استعمال اللاتينية بمثابة لغة ثقافية موحدة في أوروبا لمصلحة لغات أخرى. ولقد استلهم في ذلك شيشرون الذي كان أول من حرر اللاتينية من عقدة نقصها، جاعلاً منها لغة للثقافة، وذلك في عصر كانت الثقافة

١ تبعاً للحكم الصادر في محاكمة غاليليو، ذكره: George de Santillana, *The Crime of Galileo*, Londres, Heineman 1958.

٢ بناءً على تقرير الاتهام المتعلق بكتاب غاليليو بعنوان: "Dialogue sur les grands systemes du monde" cite dans santrillana. المصدر نفسه.

تعتبر فيه وفقاً على اليونانية، ولا يمكن التعبير عنها بالتالي إلا باليونانية. وكما يذكر هو ذاته، قبل شيشرون "لم يكن الكثير من الناس الذين تربوا على الثقافة اليونانية يعرفون كيف يشاركون مواطنيهم ما تعلموه، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن ما اكتسبوه من اليونانية يمكن قوله باللاتينية". ويمكن اعتبار شيشرون عن حق أنه مؤسس النزعة الألسنية الإنسانية، إذ دعى إلى المساواة بين اللغات باعتبارها جميعاً ظواهر تاريخية<sup>١</sup>.

وكان لا بد من انتظار عصر النهضة حتى يتم الوعي الكامل بضرورة استعمال اللغة العامية، بحيث يوضع حد للطابع الحصري للثقافة على الخاصة. ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى التشجيع والمساندة اللذين قدمهما الملوك للنزعات الوطنية بمثابة سلاح حاسم في معركتهم السياسية ضد الكنيسة. ومن الأمثلة ذات الدلالة على ذلك، طلب شارل الخامس إلى إيرازم أن يترجم أرسطو. ويتطلب الأمر أكثر من كتاب واحد بغية الإنصاف الكامل لهذا الكفاح الثقافي والألسني. يتعين البحث في الترجمة من لغات أخرى كما من اللاتينية، والبحث في التنظير الذي قدمه كل من فيليب سيدني أو دي بالي حول أهمية اللغة الوطنية، وفي كتابة كتب النحو من مثل تلك التي وضعها أربرتي، وكذلك البحث في تطوير القواميس. أقتصر على الإشارة إلى الترجمة التي ربما كانت الأكثر هدماً ونقضاً من بين كل هذه الأعمال، وأعني بذلك ترجمة مارتن لوثر الكتابات المقدسة، والتي حولت الألمانية السوقية إلى لغة كل من غوته، شلينج وهولدرلن.

ترجم مارتن لوثر الكتابات المقدسة ما بين عامي ١٥٢٢ و ١٥٣٠ لأنه رأى أنها النص الوحيد الذي يجب على المسيحيين قراءته مباشرة، من دون أي وسيط، سواء أكان الكنيسة، أم هذا أم ذاك من المفسرين، أو وساطة أي لغة غير اللغة التي يتكلمونها. ومنذ ذلك الحين، تعين أن يترجم الكتاب المقدس بلغة محكية فعلياً، إذ إن أفضل القواميس، تبعاً للوثر، هي الأمهات في المنازل، الأطفال في الشوارع، والرجال العاديون في الأسواق. ونتج من ذلك ترجمة مليئة باللعنات والأمثال الشعبية، والجمل التي يتعذر ترجمتها حرفياً إلى لغة أخرى – حيث تمثل الهدف في أن يتمكن الرجال والنساء من الإحساس بأن الله الذي

١ انظر كتاب: Patric Boide, Dante, *philomythes and philosopher: man in the cosmos*, Cambridge, Cambridge university press, 1981.

بصدده لوكرس للتعبير عن الفلسفة اليونانية في كتابه *de Rerum natura* أي في لغة، هي اللاتينية التي لم يكن لديها كلمات للتعبير عن مفاهيم على قدر من الأهمية من مثل الذرة والكون.

يجعلونه ويسبغون عليه كل أوصاف الكمال يكلمهم بالألمانية. ولم يكن لوثر يعتبر نفسه مجرد مترجم، بل بمثابة مصلح أعطى الألمان لغتهم، بفضل مؤازرته لغة الشعب. حيث كان يتعين الحكم على جدارة المترجم على أساس معرفته باللغة التي يتكلمها وتناغمه معها، أكثر من الحكم عليه انطلاقاً من تمكنه من اللغة التي يترجم عنها. فهل من الممكن مع ذلك القول إن لوثر نجح في استبعاد كل توسط ما بين المؤمن وبين كلام الله؟ تتعلق واحدة من المجادلات الأساسية، إثر ترجمة لوثر، بجملة من الفصل الثالث من رسالة دعوة القديس بولس للرومان، والتي تقول إن المرء يصبح صالحاً بفضل إيمانه، ويصرف النظر عن أفعاله، مما عبر عنها لوثر بـ "بفضل إيمانه وحده". وسيدرك القارئ الخطر الكامن في إضافة هذه اللفظة، لأنها تستبعد كل قيمة تنعت بها الأفعال، سواء أكانت طيبة أم سيئة، والتي تتناقض مع الاعتقاد الكاثوليكي بالغفران من خلال الأفعال. فماذا كان جواب لوثر على هذه الانتقادات؟ إنه يجيب بأن هذه الانتقادات غبية. فلو أن معارضييه كانوا يعرفون الألمانية، فسيفهمون عندها أنه عندما تتبع جملة تأكيدية بالنفي، يتعين أن نضيف كلمة "فقط"، إذ يقول الألماني: "يجلب المزارع الطحين فقط ولا يأتي بالنقود". تتمثل العبرة في هذه القصة، وكذلك سبب اقتباسي لها، في أنه بالإمكان استبعاد كل توسط ما بين الإنسان والكلام، ولو كان كلام الله، وباستثناء توسط اللغة التي يتم فيها تلفظ الكلام بالطبع. ويندرج من ذلك أن الترجمة من لغة إلى أخرى، أو من لغة المكتوب إلى اللغة الأم (المحكية)، تستلزم إدخال تغيير في أساليب التفكير وفي المفاهيم الأساسية، نظراً إلى تغيير الوسيط (اللغوي) ذاته. ولهذا السبب لن تقبل دولة تيوقراطية (حكم الدين) أبداً إمكان ترجمة النصوص المستعملة لتوطيد شرعيتها، إلى لغة عامية<sup>١</sup>.

وبالتأكيد لم تظهر الديمقراطية بمجرد ظهور الكتابة بلغة عامية. فلقد استغرق الأمر قروناً، والعلاقة بين الاثنين ليست مباشرة. إلا أن الأكيد، هو أنه لو لم يبدأ كتاب من مثل دي بيلاي وغاليليو الكتابة بلغة عامية، فلن يكون هناك إمكانية لظهور كتاب من مثل جون لوك، ومونتسكيو وروسو. إننا نعيش حالياً في عصر تتقدم فيه العلوم وتتغير المجتمعات

١ حتى أنه لمن المحتمل بشدة أن يستهجن الشعب ذاته هذه الفكرة. لقد طلبت مرة من رجل أمني أن يخبرني إذا ما كان يفهم القرآن عندما يستمع إليه. فأجاب: "هل تعلم، يا سيدي، أن القرآن مسجل في القلوب، ولا تحتاج سوى إلى الاستماع إليه كي يطمئن قلبك". ومن غير الممكن القول بأن هناك أي مبالغة في أهمية تلاوة القرآن في عالمنا الإسلامي.

بسرعة فائقة، بحيث لا يمكننا الانتظار عقوداً وبالأحرى الانتظار قروناً. وهو ما يفرض على كتابنا التزاماً مزدوجاً يتمثل في: الكتابة باللغة التي يتكلمها الشعب، والدعوة إلى ديمقراطية تمثل تعبيراً حقيقياً عن مشاعر الشعب والفروق بين الطبقات، لا الديمقراطية الرئاسية بأغلبية ٩٩%. أصبح هذا الواجب المزدوج ملحاً. إنها لسخرية محزنة ألا يتمكن شعب عانى من الطغيان لعقود طويلة، من تصور نظام سياسي آخر غير النظام الديكتاتوري. وقد نسمع مواطنينا يقولون: "إذا لم تستطع الحكومة إلقاء القبض على فلان، فمن يستطيع ذلك إذا؟" لا تقدم الحقوق إلى الشعب بمثابة هدايا؛ فالشعوب هي التي تكسب حقوقها. ولن تستطيع الشعوب ذلك إلا إذا بين لها الكتاب الطريق. وإذا لم يقم الكتاب العرب بواجبهم هذا الآن، فلن يكون للعرب أي وجود سوى الوجود الذي يراه الغرب لهم مناسباً - مما هو حاصل الآن عملياً.

يقوم هذا الاستنتاج على ملاحظتين: تتمثل الأولى في أن رجلاً لا يترك المجال لأي منافسة أو استحواب، حاكم بأمره وليس من حدود لسلطته، هو بالطبع رجل يعتقد أنه الوحيد الذي في استطاعته أن يعيد الأمور إلى نصابها. هذه هي الحماسة بعينها. كل رجل تبلغ نرجسيته هذا المستوى من التضخم، بحيث يعتبر ذاته "من دون منازع"، هو رجل فقد كل صلة بالواقع، ولا يمكن مثل هذا التعامي أن يجلب سوى المصائب. البراهين على ذلك لا تحصى، سواء في الغرب أو في الشرق، لكن أقصر على قصة فلسطين. من يمكنه إنكار الفشل الكارثي لكل الأنظمة العربية في التوافق على موقف مشترك بصدد القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني؟ إذ لا يتفق المستبدون أبداً على الرغم من كل دعواتهم إلى الوحدة.

وتتمثل الملاحظة الثانية في أن المعركة التي انطلقت ما بين أميركا وروسيا، منذ مئة وخمسين سنة، انتهت بانتصار أميركا الذي لم يستلزم اللجوء إلى القوة المسلحة. أشدد على القول "أكثر من مئة وخمسين سنة"، إذ ذلك هو التاريخ الذي أشار فيه توكفيل إلى هذه المعركة في كتابه بعنوان في الديمقراطية في أميركا. ولقد أنهى كتابه بوصف الفارق في الوسائل والغايات ما بين الجبارين، أي أميركا وروسيا:

يستند أولهما (أميركا)، لبلوغ هدفه، على المصلحة الشخصية، وعلى ترك المبادرة لقوة وفكر الأفراد، بدون إماءات.



بينما يركز الثاني بشكل ما كل قوة المجتمع<sup>١</sup> في فرد واحد.

يتخذ الأول من الحرية وسيلة الفعل الرئيسة، بينما أن وسيلة الثاني هي العبودية. نقطة انطلاقهما مختلفة، وأساليبهما متباينة، إلا أنه يبدو أن كلا منهما مدعو بغاية إلهية سرية لأن يمسك بيديه يوماً ما مصير نصف العالم<sup>٢</sup>.

تجدر الملاحظة أنه إذا كانت السلطة بين يدي فرد أو لدى دولة، فإنهما سيستعملانها لاستغلال الآخرين. لا يدافع توكفيل عن "سياسة" السلطة، بل هو يدافع عن "قضيتها". وليس من شك في أن ظروفًا تاريخية استثنائية سبّرت إقامة الحياة السياسية في أميركا. أقام البيوريتانيون الذين هربوا من إنكلترا في بداية القرن السابع عشر المجتمعات الأولى في فرجينيا ونيوإنجلاند. نما معدل هجرتهم بنحو كاسح سنة بعد سنة، بسبب معركة الحرية الدينية والحرب الأهلية التي تلتها في إنكلترا. تعكس أسماؤهم تعلقهم العميق والصارم بالتعاليم والطقوس البروتستانتية.

لقد أطلقوا على أنفسهم لقب "الحجاج". كان ينتمي هؤلاء المهاجرون إلى الطبقة الوسطى ويدعون إلى المساواة على صعيدي الثقافة والموارد الاقتصادية في آن واحد. وبالتالي كان من الطبيعي أن يعتقدوا بمبادئ المساواة أمام القانون (معيارية الإدارة الرسمية كما كان يطلق عليها في أئينا)، وبمبادئ النظام الجمهوري - باعتبار أن الاعتقاد السياسي الذي كان يسود أوروبا حتى أواسط القرن التاسع عشر تمثل في أن الجمهوريات لم تكن ممكنة إلا في مجتمعات صغيرة من قبيل المدن أو الكانتونات السويسرية.

قاموا بسن أول قانون حول الجريمة في كونكتيكت (مقاطعة أميركية) في عام ١٦٥٠. كان هذا القانون تقريباً نسخة من قانون موسى<sup>٣</sup> الذي يمثل الكلام الأول للإله، والذي لا

١ لا توجد في العربية سوى كلمة "القوة"، التي تحمل في الآن عينه معنى السلطة والقوة المادية. وكان كل سلطة هي عبارة عن ظاهرة فيزيقية. وهناك كلمة "سلطة" التي تعني تحديدًا السلطة السياسية، ومنها نشقت كلمة "سلطان"، إلا أنه لا يوجد مكافئ دقيق لكلمة *autorité*.

٢ Alexis de Tocqueville (1835), *De la démocratie en Amérique*, Paris Gallimard, 1992.

٣ كان الحجاج يعتبرون خروجهم بمثابة تكرار لخروج اليهود من مصر، وكانوا يفكرون في بناء إسرائيل جديدة. ولم يلاحظ أي حاكم عربي، ولا أي من أعضاء النخبة روابط العقيدة العميقة ما بين البروتستانتية التوراتية النزعة وإسرائيل. إنهم يفضلون الاتصال على ما يعرفونه عن قوة "اللوبي اليهودي". أرسلت منذ أكثر من خمس عشرة سنة مقالة إلى جريدة معارضة عن العلاقات العقيدية ما بين الولايات المتحدة وإسرائيل. ولقد تم نشرها - ما عدا جملة أخيرة تقول بأن لا شيء يمكن أن يتغير ما بقيت الأنظمة العربية على ما هي عليه. = وحيث إن رئيس التحرير كان صديقي، فلقد ذكرت له مدى مفاجأتي من حذف هذه الجملة. ولقد

ترفضه تعاليم يوشع في رأيهم: "يقولون، إنما أنا، أقول لك أن...". ولقد ثاروا إثر ذلك ضد التاج البريطاني وانتصروا. انتهت ثورتهم في عام بداية الثورة الفرنسية ذاته (١٧٨٩). وكان هناك أخطار بشأن إمكان اقتتال الولايات الثلاثين التي أسهمت في حرب التحرير في ما بينها بعد هزيمة الإنكليز، إلا أنه جرى تأليف لجنة من خمسة وخمسين عضواً بقيادة واشنطن، وتضم كلاً من ماديسون، جيفرسون، وهاملتون من بين أعضائها. وكانت النتيجة الخروج بعمل رائع من الحس العام والذكاء والإبداع، إذا توقفنا عند تطبيق مبدأ فصل السلطات الذي كان يمكن أن يتخذ شكلاً آخر، أو لو توقفنا أيضاً عند التعاون ما بين الدولة المركزية والسلطة الفيدرالية.

تمثل همّ المشرعين الأساسي في تطبيق مبدأ سيادة الشعب، من خلال إخضاع أكثر أعضاء الجهاز التنفيذي والتشريعي قوة للانتخاب. وفوق ذلك، عهد في الحكم على الأفعال المخالفة للقانون إلى هيئة لمحلفين مكوّنة من الأفراد. وتمتع المواطنون بحرية تكوين الاتحادات والروابط التي يرغبون فيها دفاعاً عن حقوقهم ومصالحهم. ويمكن أن يتعلق الأمر بحملة لمنع حافلة نقل عام من المرور في شارع سكني، وصولاً إلى تعبئة معارضة لقانون معين، أو للدفاع عن قضية من مثل الإجهاض، أو حقوق الحيوانات، وهكذا دواليك. ومن الواضح أن هذه الحقوق تمثل أفضل وسيلة للحيلولة دون قيام مؤامرات أو تمردات مسلحة. وبالتأكيد فإنها أفضل وسيلة لمعارضة الإرهاب.

وباختصار، لا تركز سلطة أميركا على أساطيلها، أو قنابلها، ولا حتى على جامعاتها. وهو ما يكون السلطة ذاتها، ولكن ليس قضيتها أو منبعها. لا يتمثل منبعها في اتساع أراضيها الشاسعة، ولا في تنوع مواردها - وإلا لكانت روسيا قد تساوت معها - بل يتمثل منبعها في دستورها وقوانينها. تلك هي السلطة التي تتيح لأميركا شراء الموارد الاقتصادية لبلادها بأكملها، وفوق ذلك شراء السوق الذي يدير هذه الموارد.

وبالطبع سيكون من قبيل الإفراط في الحلم تخيّل أعضاء النخبة، الذين يتشكلون من طبقتنا الوسطى المثقفة، أنهم يمكن أن يلتقوا ويكتبوا دستوراً ذا أهداف مماثلة، بحيث يصبح بإمكاننا أن نطلق تاريخنا من جديد. وحتى لو كتبوه على سبيل الافتراض، فلن يعني ذلك

---

اعتبر بأنه لم يعد هناك من مساحة لنشرها! كان من الواضح أنه أخضع نفسه لرقابة ضمنية ومقبولة منه ضمنية، فلقد وضعت قيود صارمة لم يكن بإمكانه تجاوزها، وإلا لعرض للاعتقال أو لإفقال جريدته، أو للاتين معاً.

شيئاً لشعب لم يعيش أبداً تجربة في التعاضد دفاعاً عن مصالحه المشتركة، والذي يعني له مفهوم سيادته من دون حاكم يحكمه مجرد الفوضى ونهاية الحياة الاجتماعية. يتوقف على كتابنا أمر تثقيف مواطنيهم انطلاقاً من مبدأ الألسنية ذات النزعة الإنسانية. لا يتمثل واجب الكتاب في بلادنا "في قول الحقيقة للسلطة"، كما يذهب إليه إدوارد سعيد، إذ إن التشبث بالسلطة المطلقة يستتبع لا محالة الصمم الكامل تجاه خطاب كهذا - ذلك أنه لن يمكن أبداً سماع الحقيقة ما طغى التشبث بالسلطة - بل يتمثل واجبهم في مساعدة الشعوب على التمكين تماماً من خطاباتهم الخاصة بحيث يوصلونهم إلى التحرر الذاتي هم أنفسهم. فهل هذا أيضاً مجرد وهم آخر؟

## الفصل السابع

### الجيل المعاصر طليعة عهد جديد

يمتد العهد القديم في مصر عشرات القرون إلى الماضي السحيق. هو يمتد تحديداً إلى قيام الدولة الفرعونية منذ آلاف السنين التي سبقت السنوات الميلادية والهجرية على السواء. وما كانت الدولة الفرعونية لتقوم لولا ظهور الكتابة، على الأقل في صورها البدائية التي تسمح بتدوين الوارد والصادر ونفقات البناء والتجديد إلخ... هذا فضلاً عن كونها الوسيلة الوحيدة للتراسل الذي لا يتسنى من دونه استتباب الاستعمار وبناء الإمبراطوريات، لا بل لا يتسنى تأسيس الجهاز المكلف بالتحصيل والتجنيد والأمن والردع والقضاء. وهو الجهاز الذي نخطئ في اعتباره سند الدولة الأول، في حين هو الدولة نفسها في تحققها الواقعي. فالدولة إنما تحكم بالمخطوطات، سواء نشأ الكتبة في ظل الفراعنة أو تخرجوا في هارفرد في القرن الحادي والعشرين.

هذه الدولة إنما استمرت سلطتها على النفوس من الشكل الأول للاجتماع الذي ألفه الإنسان، ألا وهو شكل الأسرة، وبالأخص شكل الأسرة الأبوية التي ينفرد فيها الأب بالقرار والحساب من دون أن يكون عليه حساب، ومن ثم كانت له مكانة أقرب إلى التآليه. والواقع أن الفراعنة إما تألهوا أو نسجوا بينهم وبين الآلهة صلة ما. فإن لم يتألهوا حكموا باسمهم أو باسم كتابهم. الشيء الأهم في هذا كله هو أن هذه الدولة لم تستمد مشروعيتها ممن سيطرت عليهم، أي من عامة الناس، بل من الحق الذي يسكن الأرض، لأن كل إنسان كذاب بالقوة أو بالفعل، ولكن مسكنه السماء. ومنه اكتسبت الكتابة منذ البدء، أي منذ توظيفها في خدمة الدولة، طابع القداسة، وهو ما تدل عليه أكبر الدلالة أن النصوص الدينية

سبقت كل كتاب. ومنه نفهم حرص هذه الدولة التي لا تنفصل فيها السياسة عن الاعتقاد أو التي هي دين ودنيا معاً على إخفاء الكتابة بما هي ظاهرة إنسانية تكنولوجية، واعتبارها سرّاً خُصّصت به هذه الدولة المستمدة مشروعاتها من علوّيتها، وحقوقها من الحق نفسه، أو خُصّص به من وظائفهم في خدمتها. فلما دعت حركات التاريخ إلى ضرورة تعليمها على نطاق أوسع، كانت العقيدة الأولى في هذا التعليم هي الفصل بين اللغة النحوية التي هي لغة الدين ولغة الخاصة، وبين اللغة التي تلوك بها السنة العامة والتي لا تدخل أبواب المدارس أبداً، ولن تقبل دُخولها أي حكومة عربية.

سمعت أن شابة اشتركت يوم ٢٥ يناير سنة ٢٠١١ مع من هزّوا طوق الحكم للمرة الأولى في تاريخ بلادنا، سمعت أنها صاحت: لماذا ليس لنا أي وجود في المدارس؟ لعلها تعلم الآن. الشيء الغريب حقاً هو أن هذا الشرط الأول الذي أنبئ عليه دوماً مذهب التعليم في بلادنا قد نزل في العقول منزلة البديهيات، حتى إنها سمعت دهشاً من بعض من تحدثت إليهم: هيه العامة لها نحو؟

النتيجة الملموسة لهذه السياسة هي القطيعة المطلقة بين العامة وبين الكتابة والكتاب وثباتهم كالأهرام المتحجرة على عقيدة مؤداها أن ليس من الحكم إلا نوعان: حكم الله وحكم الإنسان. ثانيهما كافر، ولكن لما كان الله - وأسفاه! - لا عرش له على الأرض، فحكمه لا يتحقق إلا بحكم الواحد من دون شرك أو شراكة، كما أن الأسرة لا تكون بأكثر من أب. هذا الواحد لا يستمد سلطانه من نسب إلهي ضرورة، بل من استناده إلى الكتب المقدسة التي نوح الأنبياء في نشر الاعتقاد بنزولها بتكليف من السماء.

هذا الطابع الذي اتسم به الحكم، إذ خرج في بلادنا جامعاً بين الدنيا والدين منذ بدء التاريخ، والذي كان مستساغاً حين كان الحكم غزاة بنائين، ظل هو هو خلال تاريخنا الحديث الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى. والشيء الأهم هو أن هذا الاستئناف لدولة الدين أو لدين الدولة لم يكن تدليساً على عامة الناس، بل استجابة لطلب صار بحكم تاريخهم مطلباً حيوياً عندهم. فدخول الأفكار الغربية إلى بلادنا مع دخول الاحتلال لم يغير في هذا الصدد شيئاً ولا أظن، إلا أن العدد الأعظم من مواطنينا سوف يثيرون ثورة عارمة في وجه أقل مساس بالمادة الأولى، في ما كان لنا أو سوف يكون من دستور، وأعني بها المادة التي تقضي بتمتع دولتنا بدين الإسلام، ومنه يتمتع الحاكم الديني بحق الإمارة في

شؤون الدين أيضاً: فهو الذي يسند إلى شيخ الأزهر - وهو أكبر حجة في الإسلام - منصبه، وهو الذي يعين مفتي الديار، ويعين أيضاً أئمة المساجد الكبرى، ويقرر برامج التعليم، وعلى رأسها التعليم الديني. الأمر الوحيد الذي استجدّ في ظل الاحتلال البريطاني هو أن حسن البنا أسس جماعة الإخوان المسلمين التي أرادت المشاركة في الحياة السياسية إلى جانب الأحزاب الأخرى، وهو مطلب شائع في دولة علمانية صرفة تركت للجميع حق العمل وفق معتقداتهم. أما أن يدّعي حزب تطبيق الإسلام في دولة تعتنق هي نفسها الإسلام فأمر لا معنى له سوى تكفير هذه الدولة، أو على الأقل إدانتها بكونها لا تطبق الإسلام تطبيقاً كافياً، وهي إدانة لا يخفى مطعمها على أحد: ألا وهو انفرادها هي بهذا التطبيق الكافي الذي يتمتع به أبناء شعبنا العزيز، بحيث يصح القول إن تأسيس جماعة الإخوان المسلمين كان أول ثورة في مجتمعنا، بما هو مجتمع لم تترك - أو لم تكن تترك - أيديولوجيته الممتدة آلاف السنين مجالاً فيه إلا لثورة محافظة! فلما انفرد بالسلطة حكم عسكري مطلق صريح ابتداءً بالشنق عقاباً على الإضراب وانتهى في أول مرحلة له - التي نعترف على الأقل بفضل معارضته للاحتلال الياباني الجديد خلالها - إلى هزيمة ١٩٦٧، كان طبيعياً أن يزداد البطش بالإخوان بطشاً دموياً لا يعرف حداً أو وازعاً.

غير أن حكم العسكر لم يعد هو هو بعد أن استوعب ثالث من خرجوا من صفوفهم درس الهزيمة التي مني بها أولهم واغتيال ثانيهم. هنا الدرس يتلخص في الكف عن الكلام على مكافحة "العدو الصهيوني" والتسليم بالأمر الواقع، أي الانصياع لسياسة الأقوى انصياعاً يكافأ عليه الجيش بما يقارب مليار ونصف المليار من الدولارات، لا ليصنع بها سلاحاً لا طائل منه، بل ليستعمر البلد استعماراً اقتصادياً يعود على قواده بثروات تفوق ثروات أمراء البترول وملوكه. ومنه صار حكم السيد حسني مبارك حكماً تسنده سياسة الجيش الجديدة: يد تهب البلد ويد تحمل السلاح في وجهه.

ولم يقف الأمر عند النهب وما نجم عنه من فساد لم يعد فساداً في النظام بل صار النظام نفسه. فقد مس البغي الهيئة الوحيدة التي ظل المصريون على احترامها واللجوء إليها متى وجب إحقاق العدل، ألا وهي هيئة القضاء التي تستمد منها مشروعيتها كل من القوتين التنفيذية والتشريعية. بهذا أضيف إلى فشل الدولة في جميع واجباتها الوطنية والاجتماعية فسق يزيد شناعة، إذا أردنا بالفسق حكماً لا يحدّ فيه القانون أهواء الحاكم بل يخضع لها.

ومنه رأينا زمرة من القضاة الذين يتبرأ منهم القضاء المصري، رأيانهم يحتلون المقاعد التي تبيح لهم أن يظلوا أي قانون ولو كان مصدره إرادة الشعب، متى خرج عن إرادة العسكر الذين تولوا الحكم بتكليف من مبارك قبل أن ينزاح عنه.

الأمر الذي لم يحسب له أحد حساباً، هو ظهور طبقة جديدة من المثقفين تختلف تماماً عن طبقة كبار الكتاب الذين نشأ الخاصة على أعلامهم في القرن الماضي، من دون صلة بالعامية. وأعني بهم طبقة الشبان والشابات ممن مكنتهم وسائل الثورة الإلكترونية المعاصرة من تفجير النظام تفجيراً لم تكن تستطيعه طبقة العمال رغم ما وعدهم به التاريخ من حتمية انتصارهم. بدأ الأمر بحشد ٢٥ يناير سنة ٢٠١١، وهو تاريخ لا يخلو اختياره من الحنكة السياسية، إذ نعلم أنه التاريخ الذي كانت الدولة تعتزم الاحتفال فيه بأجناد شرطتها في أعمال الإهانة والتهديد والتعذيب. ثم كانت المفاجأة الكبرى التي ما كان أحد يتوقعها أو يحلم بها، ألا وهي انضمام جموع الشعب بكل طبقاته إلى جموعهم. اعتقد أن طرد زين العابدين بن علي من تونس كان الإلماعة الأولى إلى أن المستحيل قد يتحقق. أما الشرط الذي لم يكن منه بدٌ كيما يخرج الممكن إلى حيز الفعل، فكان متحققاً إلى أبعد حد: فدولة مبارك لم تقبل في جميع مهماتها وحسب، بل تحول هذا الفشل إلى نظام معاد للشعب صراحة، وهو الأمر الذي تبلور الشعور به في نفوس الجميع مع مقتل خالد سعيد، بحيث صار الحكم العسكري المستحوذ على البلد أشبه باستعمار محلي تزيد مساوئه فداحة على الاستعمار الأجنبي.

إني إذ أتحدث عن الحكم العسكري، إنما أصرّح بما لمس الشباب الذي أشعل نار الغضب في ميدان التحرير من أن تخلي مبارك عن الحكم لم يكن يعني سقوط دولته. يبقى أن هذا الشباب وإن لم تؤدّ ضربه الأولى إلى ثورة تمثل قطعاً طبقة ثورية سوف تجعل الحكم الديكتاتوري، سواء بقي في يد العسكر أو انتقل إلى يد المتدينين السلفيين، أصعب منه بما يزيد على الوصف في أي وقت مضى.

إن الحكم في مصر الذي كان دائماً حكماً دنيوياً دينياً في مشروعيته وثوابته الأساسية، قد تحول الآن بفضل أحداث ٢٥ يناير سنة ٢٠١١ وما تلاها إلى صراع تساومي بين العسكر وبين الإخوان المسلمين الذين يعدون باحترام الصبغة المدنية للحكم إذا جلسوا في مقاعده. وأغلب الظن أن حزب الحرية والعدالة الناطق باسمهم يعلم أن حصوله على أكبر قسط

من المكاسب في المساومة الحاضرة موقوف إلى حد بعيد على مناصرة أبناء الطبقة الجديدة وغيرهم من التقدميين له. واعتقادي هو أن هؤلاء قد بدأوا يشعرون أن الخطر لا يكمن في قادة الإخوان السياسيين، بل بالأصل في ما بدأت بوصفه باسم العقيدة السياسية التي عاش عليها شعبنا آلاف السنين، والتي تجعل الغالبية العظمى من المواطنين مقيمة على طلب الواحد الذي يحكم بما أتى به القرآن، من دون أن يساورهم أقل وعي بأن هذا الحكم لن يكون أبداً إلا حكماً بالتفسير الذي تراه مصلحة السلطان للقرآن. إذا كانت هناك ثورة في مصر، فأني أراها في ظهور طبقة جديدة من المثقفين المنتمين إلى الطبقات الوسطى، والذين بدأوا يشعرون - خلافاً لمثقفي القرن الماضي - بالهوة التي تفصل بينهم في المدن وبين مواطنيهم المتشربين قرب الأرياف وما نأى. إن أول واجبات هذه الطبقة الجديدة هو نشر الوعي بأن القول بكون الإسلام ديناً ودنياً لن يخرج أبداً عن أن يكون استغلالاً للدنيا باسم الدين، ومنه كان كفرهما معاً. أما السبيل الأول إلى تحقيق هذا الواجب، فهو القيام بالدور الأول في كل ما يتعلق بالتعليم وسياسات التعليم في مصر.

هذا العمل على إدخال ثقافة سياسة جديدة في نفوس مواطنينا لن يكون بالأمر الهين، بل قد يكون مستحيلًا في المستقبل المنظور. لأن كارتتنا العقلية لم تقف عند حدّ الكذب الذي يتوسل بالدين من أجل الوصول إلى الحكم، بل إن الواحد المستبد بالحكم لا يلبث أن ينزل في النفوس منزلة الراعي للرعية، أو منزلة الأب للأبناء الذين يرون فيه كل ما يتخيلونه من المعاني التي لا تتحقق إلا بها الأبوة الكاملة، وأولها معنى الذكورة المطلقة التي لا يدخلها وهن أو نقصان يفقدها سيطرتها التامة على المرأة. لهذا لم يكن عجباً - رغم النكات التي تصبّ في هذا المعنى - أن تعشق الرعية راعيها، إلا إذا خرجت حرمه من ظله فتصرفت وفقاً لإرادتها هي، على نحو يفقده هيئته: عندئذ ينطلق الذعر الدفين وتنطلق الثورة عليه لا على الاستبداد في حدّ ذاته. يكفي أن نتذكر كيف كانت الأحوال قبل أن ينطلق "الربيع العربي".

خلاصة الكلام هي أن قضية حق المحكومين في مساءلة الحاكم - إذا كان ذلك هو المعنى الأساسي للديموقراطية - ترتبط ارتباطاً عضوياً بقضية تحرير المرأة. فإذا تركنا جانباً الاستغلال السياسي للعقائد المجعولة للإيمان وتركنا وهم الذكورة الكاملة، الذي يتجاهل حدود كل كائن حي، بقي الشر الثالث الذي يهددنا جميعاً، ألا



وهو عاجزنا عن كل اتفاق عدا الاتفاق على ألا نتفق. ومنه تفقد الكلمة وظيفتها الإنسانية والاجتماعية الأولى كطريق مفتوح أمام "الاعتراف بالآخر"، حسب التعبير الذي نحب التشدد به، أي مفتوح، بمعنى أدق أمام التوفيق بين مختلف الآراء والمطالب توفيقاً سليماً قد يقتضي بعض التضحيات التي تهون أمام ويلات الحرب. هذا العجز قد غذاه النظام الاستبدادي الذي يحرم تكوين أي جماعة يتفق أعضاؤها على تحقيق هدف مشترك. ومنه لم نفقد القدرة على التعاون فحسب، بل فقدنا فكرة القاعدة نفسها التي يبنى عليها كل تعاون، ولو كانت قاعدة الالتزام بالطابور حين يجب الانتظار! فلو أن طبقة الشباب المعاصر تفرقت جماعات بمسك كل منها برأيه مثلما بمسك الحاكم المستبد بأمره، لما نجحت في تكوين جبهة واحدة، وفي سن القواعد التي تكفل احتفاظها بوحدها رغم ما قد يقع من الاختلاف في داخلها.

لو أن الشباب المعاصر أخفق في هذه المهمة لفقد طاقته الثورية وفوت علينا فرصة، إن لم أقل حلماً لن يعوّض. لا، بل لفوت على منطقة الشرق الأوسط بأسرها فرصة الخروج السياسي من ماضٍ لن يسمح لها بالحياة، وسط المتغيرات المذهلة للحياة المعاصرة.

## قراءات استكمالية

### ١ - في الكتابة والسلطة.

- المرجع الأكثر جَدِّية حول أدب العالم اليوناني - الروماني:
  - William V. Harris, *Ancient Literacy* (London, Harvard University Press, 1989).
- المراجع الأكثر فائدة ودقة حول الحقوق وتاريخ الديمقراطية في اليونان القديمة:
  - Douglas M. MacDowell, *The Law in Classical Athens* (London, Thames and Hudson, 1978).
  - Claude Mossé, *Les Institutions grecques* (5<sup>e</sup> edition, Paris, Armand Colin, 1996).
  - Claude Mossé, *Histoire d'une démocratie: Athènes. Des origines à la conquête macédonienne* (Paris, Le seuil, 1971).
- حول ولادة علم السياسة في اليونان القديمة (مطوّل بعض الشيء، لكنه يحتوي تحليلاً جميلاً وعميقاً):
  - Arlene W. Saxonhouse, *Fear of Diversity: the Birth of political Science in Ancient Greek Thought* (London, University of Chicago Press, 1992).
- حول الكتابة والسلطة عموماً وفي الشرق الأوسط على وجه الخصوص:
  - Alan K. Bowman et Greg Woolf (dir.), *Literacy and Power in the Ancient World* (Cambridge, Cambridge University Press, 1994).
  - Deborah KELLER-COHEN (dir.), *Literacy: Interdisciplinary Conversations* (Cresskill, NJ, Hampton Press, 1994).
- حول الكتابة في مصر القديمة، منظور عام جداً:
  - J. Baines, "Literacy and Ancient Egyptian Society", in *Man* n° 18 (1993), p. 572-599
- أفضل ترجمة لنص دانتى الفصاحة في اللغة المبثلة.
  - DANTE ALIGHIERI, *De l'éloquence en langue vulgaire*, in *Œuvres complètes*, traduction d'André Pézard (Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1965).
- حول مارتن لوثر كنغ وعمله في الترجمة والإنسانية الأسنوية.
  - Collège international de philosophie, "De l'intraduisible en philosophie, le

passage aux vernaculaires", in *Rue Descartes*, n° 14 (Paris, Albin Michel, novembre 1995).

## ٢ - في الفلسفة السياسية القروسطية وعصر النهضة الأول

- أفضل عملين إلى يومنا هذا حول الفلسفة السياسية القروسطية في أوروبا وحول

العوامل التي ولدت الفكر الجديد هما:

- Ernst H. KANTOROWICZ, *Les Deux Corps du roi*, traducton de Jean-Philippe Genet et Nicole Genet (Paris, Gallimard, 1989).

- Otto Friedrich Von Gierke, *Les Théories politiques du Moyen Âge* (Paris, Dalloz -Sirey, 2007).

- كتاب يصحح جيداً الأفكار المتداولة عن العصور الوسطى:

- Jean GIMPEL, *La Révolution industrielle du Moyen Âge* (Paris, Le seuil, 1975).

- كتاب جيد يعرض بدايات النشاط الفكري في القرون الوسطى وتأسيس الجامعات

التي نتجت عنه:

- Jacques LE GOFF, *Les Intellectuels au Moyen Âge* (Paris, Le Seuil, 1985).

- حول البابوية، الكنيسة والحفاظ على الوحدة الأوروبية بعد سقوط الإمبراطورية

الرومانية:

- Colin MORRIS, *The Papal Monarchy: The Western Church from 1050 to 1250* (Oxford, Clarendon Press, 1989).

- Paolo PRODI, *The Papal Prince, One Body and Two Souls: The Papal Monarchy in Early Modern Europe* (Cambridge, Cambridge University Press, 1987).

- Brian TIERNEY, *Origins of Papal Infallibility, 1150-1350: A Study on the Concepts of Infallibility, Sovereignty and Tradition in the Middle Ages* (Leiden, Brill, 1972).

- حول نمو الأوطان والقوميات في أوروبا:

- Bernard GUÉNÉE, *L'Occident aux XIV et XV siècles. Les États* (6<sup>e</sup> edition, Paris Presses universitaires de France, 1998).

- *État et Église dans la genèse de l'État moderne* (Madrid, ouvrage collectif, bibliothèque de la Casa de Velazquez, 1986).

- *Le Sacre des rois* (Paris, ouvrage collectif, Les Belles Lettres, 1985).

- كتاب لا يجدر نسيانه يمثل مرجعاً منذ نشرة عام ١٩٢٤.

- Marc BLOCH, *Les Rois thaumaturges* (rééd. Paris, Gallimard, 1983).

- كتاب أساسي لفهم كيف عبرت أوروبا من حالة "الجمهريات المسيحية" أو

المجتمع الموحد حيث اختلطت السلطات السياسية والدينية (سواء على شكل بابوية

سياسية، أو تيوقراطية ملكية) إلى حالة المجتمع السياسي القائم على مختلف مكوناته وحول محاولة التنسيق بينها:

- Max WEBER, *Wirtschaft und Gesellschaft, Grundriss der Verstehen Soziologie*, éd. J. Winckelmans (5<sup>e</sup> édition, 2 vol., Tübingen, Mohr, 1974); traduction française: *Économie et société* (2 tomes, Paris, Plon, Agora, 1995).

## صادر للمؤلف

### بالفرنسية:

- *Le Structuralisme en psychanalyse*, Points, Seuil, 1973
- *Études sur l'œdipe*, Seuil, 1974
- *La Sexualité féminine dans la doctrine freudienne*, Seuil, 1976
- *L'Échec du principe de plaisir*, Seuil, 1979
- *L'Inconscient et son scribe*, Seuil, 1982
- *Jacques Lacan et la question de la formation des analystes*, Seuil, 1983
- *Le Transfert et le désir de l'analyste*, Seuil, 1988
- *La Parole ou la mort. Comment une société humaine est-elle possible*, Seuil, 1993
- *Malaise dans la psychanalyse (en collaboration avec Philippe Julien et Christian Hoffmann)*, Arcanes, 1995
- *Dix conférences de psychanalyse*, Fayard, 2001
- *Lacaniana*, tome 1, Fayard, 2001
- *Lacaniana*, tome 2, Fayard, 2005
- *Travailler avec Lacan* (dirigé en collaboration avec Alain Didier-Weil), Flammarion, 2008

### بالعربية:

الكلام أو الموت، (ترجمة مصطفى حجازي)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨.  
إشكاليات المجتمع العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٨، بالاشتراك مع عدنان حب الله.

### ترجمات:

تفسير الأحلام، فرويد، دار المعارف، القاهرة، أكثر من ١٠ طبعات منذ ١٩٥٩  
مقال في العبودية المختارة، إيتيان دي لا بويسيه، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠  
فنومينولوجية الروح، هيغل (لم ينشر).



# فهرس الأماكن

أ

البناء، حسن ٢٧  
بوير ٢٣  
بوش، جورج و. ٦٤  
بيكون، فرنسيس ٢٢، ٢١

ت

توسيلجوس، ٥٦، ٩٧، ٩٨  
التونسي، يرم ٣٦، ٧٦  
تيتو، جوزف ٢٩

ثـ

ثابت بن قرّة ٦٥

ج

جاكوبسون ٨٤  
جاهين، صلاح ٣١  
جلادستون ٢١  
جوستينيا ٤١  
جيفرسون، توماس ٨٨  
حجازي، مصطفى ٢٤  
حداد، فؤاد ٣١  
حسين، طه ٢٧  
الحقارزمي ٦٥

د

داروين ٢٣، ٢٨  
دانتى ١٥  
دراكون ٩٤  
دوركهام ٢٣  
دوستوفسكي ٧٨  
دوكيوس، نقولاس ٤٧  
دي أوتان، هونوريوس ٤٩  
دي أوكام ٤٤  
دي بادوا، مارسيل ٤٤، ٤٥، ٤٧  
دي بالي، ٨٩، ١٠٨  
دي بيلاي ١٠٩  
دي توكفيل، ألكسي ٨٥، ١١٠  
دي شارتر، برنارد ٤٨  
دي لا بويسيه، إيتيان ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٣-٣٥، ٣٨

ب

آدمز، جون ٨٨  
إبراهيم (النبى) ٨٩  
ابن خلدون ٧٢، ٧٣  
ابن رشد ١٧  
ابن سينا ٦٧، ٦٨  
الأبتودي ٣١  
أبو السعود، فخري ٢٨  
إدوارد (الملك) ٨٠  
أدونيس ٧١، ٧٤  
أرسطو ٣١، ٤٥، ٤٧، ٨٤، ٨٥، ٩١، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٨  
أرلبرتي ١٠٨  
أريستوفان ٩٨  
أريستيد ٩٦  
الإسكندر المقدوني ٤٣، ١٠٥  
أفلاطون ٩٨-١٠١  
الإكزيتي شتوعلسى ٤٤  
أمين، أحمد ٢٨  
أمين، قاسم ٢٧  
إنجلز، فريدريك ٨٦  
أوينهايمر، روبرت ٦٣  
أورييد ٧٢  
إيرازموس ٥١  
أينشتاين ٦٤

بارباروسا، فريدريك ٢٧  
باسكال، بليز ٦٤  
باشلاز ٢٣  
بطرس (الرسول) ١١  
بطليموس ٢٣  
بلوتارك ٩٤  
بو، إدغار ألن ٨٨  
بوتاريل ٧٦  
بوشكين ٧٨  
بولجاكوف ٦٩  
بيكون، روجر ٦٨  
باير، توني ٦٤

ديكارت، رينيه ٣٢	تجنشتاين، لودفيغ ٢٣
ديموستين ٩٦	فرجيل ٤٨، ٧١
	فؤاد (الملك) ٢٧
ر	فيليب الثاني (الملك) ١٧
راسل، برتراند ٢٣	ق
راسين ٨١	قسطنطين ٤٤
روسو، جان جاك ١٠٩	ك
زكريا، فؤاد ٥٤، ٥٤	الكاهي ٦٥
ز	كيلر ٢١، ٢٢، ٦٨
س	كوبرنيك ٢١، ٢٢، ٢٣، ٦٨
السادات، أنور ٨٨	كونت، إيمانويل ٢٣
سانت أوغسطين ٤٨	ل
ستالون، جوزيف ٨١	لاي، شو إن ٢٩
ستراوس، ليو ٧٤	لوثر، مارتين ١٠٨، ١٠٩
سعيد، إدوارد ١١٣	لوك، جون ٢٢، ٨٨، ١٠٩
سعيد، خالد ١١٧	ليشترغ ٥٩
سميث، آدم ٨٨	ليفي، شتراوس، كلود ٦٠، ٩٣
سوسر ٨٤	م
سيفني، فيليب ١٠٨	ماديسون، جيمس ٨٨
شارلمان (الأميراطور) ١٥	ماركس، كارل ٢٨، ٨٩
شكسبير ١٥، ٧٨	مارلو ١٢
شيراك، جاك ٦٤	مبارك، حسني ٨٨
شيترون ١٠٧، ١٠٨	موسى (النبى) ٨٩، ١١١
ص	موس، مارسيل ٦١
صفوان، مصطفى ٩٩، ١٠٠، ١٢-١٥، ١٧	مونتسكيو ٨٨، ٨٩، ١٠٩
صولون ٩٤	مكيافيللي ٤٤، ٤٨
ط	ن
طردستون ٢٨	نهر، جواهر لال ٢٩
ع	نيوتن ٢١، ٦٣، ٦٤، ٦٨
عبد الرازق، علي ٢٧	ه
عبد الملك بن مروان (الخليفة) ٧٤	هاردى، توماس ٢٨
عبد، محمد ٢٧	هولدرن ١٠٨
عودة، محمد ٢٨	هونوريوس (البابا) ٢٧
عوض، لويس ٢٨	هيدغر ٨٢
غ	هيرودوت ٩٧، ٩٨
غاليلى ١٤، ١٥، ٢١، ٢٣، ٦٨، ١٠٧، ١٠٩	هيفل ٥٣
غريغوار السابع ٤٩	و
غوته ١٠٨	فالدتيار ٨٨
غوغل ٧٨	فانون، فرانز ٢٥
ف	
	ولسون، جيمس ٨٨





اللغة اليونانية ٧٣، ١٠٥

م

الماركسية - اللينينية ٣٢

المأساة الفلسطينية ٣٧

محو الأمية ١٩

المدرسة اللاكانية ٩

المعتقد ٦٥

المحرقة ٦٥

الموروث الديني ١١

ن

النتخب الدينية ١٧

النتخب السياسية ١٧

نظرية الكوانتوم ٢٣

النهضة الاقتصادية ٨

ه

الهيمنة الأمريكية ١٣

هزيمة حزيران / يونيو (١٩٦٧) ٢٥

و

الوثنية ٦٥

الوعي الذاتي ٨

ي

اليقين العقلي ٢٢

اليقين الإيمان ٢٢

س

السبية الحتمية ٢٢، ٢١

السلطة التشريعية ٢١

السلطة التنفيذية ٢١

السلطة القضائية ٢١

السلطة الملكية ٤١

السيادة ٩١

سياسة «السيف والمنسف» ١٨، ١٢

ش

الشورى ٥٣، ٥٨

الشورية ٨٥

الصفوة ٧٠

ص

صناعة التغيير ٨

ع

العبودية (٣١، ٣٣، ٣٤، ١١١)

العصبية ١٢

عصر النهضة (٢١، ٣٠، ٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥١)

العلمانية ٦٥

علوم الكنيسة ٢١

ف

فصل السلطات ٢١

الفكر العربي ٨

الفلسفة التطبيقية ٥١

الفلسفة السياسية ٢٩، ٤٣، ٤٤، ١٠٠

الفنون الليبرالية ٤٩

ق

قوانين الطبيعة ٢٣

ك

الكوميديا الإلهية ١٥

ل

اللاهوت (٢١، ٢٢، ٢٧، ٧٥)

اللاوعي الفردي ١٠

لغة الإسبرنتو ٨٤

اللغة الإنكليزية ١٥-١٧

اللغة الإيطالية ٧٣، ٧٧، ١٠٧

اللغة العربية (١١، ٧٤)

اللغة الفرنسية ٨١

اللغة اللاتينية (٧٣، ٧٥)

اللغة النحوية ٣٥

اللغة الهجينة ١٨

اللغة الهيروغليفية ١٠٣



انطلق الحراك العربي في تعبئة شعبية غير مسبقة حرّكت كل الطاقات الحية المخترنة. ولكن بناء الإنسان والمستقبل وصناعة التغيير يتجاوزان التغيير السياسي وإسقاط الحكام المستبدّين. ويتمثّلان في مشروع نهضوي فعلي اقتصادي علمي معرفي اجتماعي ثقافي وسياسي مؤسّساتي.

هنا تبرز أهمية هذا العمل الذي يكشف بنى الاستبداد ويحلّل آلياته التي وطّدت أركانه، ليس سياسياً فقط وإنما اجتماعياً وثقافياً ولغوياً. ومن أبرز مقوّمات بنى الاستبداد التي يعالجها هذا العمل، العلاقة بين اللغة والكتابة، وسلطات الاستبداد، وكذلك ما يمكن أن نطلق عليه تسمية اللاوعي الثقافي، على غرار اللاوعي الفردي، الذي يرسخ علاقة الاستبداد بين الحاكم والشعب.

يتكامل لدى صفوان هم تحرير الإنسان العربي من الاستبداد مع تحرّره من الاستلاب الذي تمارسه عليه المكبوتات النفسية. هذه المكبوتات هي في الحقيقة الوجه الآخر للقهر السياسي والاجتماعي والثقافي. فعندما يتحرّر الإنسان من الداخل يستردّ ذاته الأصيلة، ما يمكنه من الانفتاح على الرباط الإنساني والاعتراف بالآخر، انطلاقاً من الاعتراف بالذات، مما يشكل أساس كل تحرير سياسي اجتماعي.

مصطفى صفوان هو أحد كبار المحلّلين النفسيين من مدرسة لاكان. هاجر مصر إلى باريس منذ ما يزيد عن نصف قرن. وهو في الآن عينه فيلسوف اجتماع سياسي ملتزم بقضية تحرير الإنسان العربي - المصري نموذجاً. ألوان الاستبداد السياسي والديني، وله كتابات هامة في هذا المجال منها

Bibliotheca Alexandrina



1182420

DAR  
AL SAQI



دار  
الساقية

ISBN 978-1-85516-917-3



9 781855 169173 >